الأمثال القرآنية

دراسة وتحليل وتصنيف ورسم لأصولها وقواعدها ومناهجها

تأملات

عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني



دار القلم
دمشق - بيروت

الأمثال القرآنية

دراسة وتحليل وتصنيف ورسم لأصولها وقواعدها ومناهجها

تأملات

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني



دار القلم

دمشق - بيروت

الطبعة الأولى

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

دار القلم
دمشق - بيروت

الإدارة : دمشق - حلبوني - ص.ب ٤٥٢٣ - هاتف ٢٢٩١٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

ربّ لك الحمد ، ملء السماوات وملء الأرض ، وملء ماشئت من شيء بعد ، اهلَ الثناء والمجد ، وكلّنا لك عبد .لا مانع لما أعطيتَ ولا معطي لما منعت .

وصلّ اللهم على نبيّك محمد الذي انزلتَ عليه القرآن كتاباً معجزاً لا يخلَق على كثرة الرّدّ ، ومَعيناً ثرّاً لا ينضب ، للدين والخلق ، وعلم السلوك ، ومناهج سعادة الإنسان ، والأدب ، وفنون القول ، وطرائق البيان ، وطمأنينة النفس ، وسكينة القلب ، وسعادة الروح لمن واظب على تلاوته وتدبّر معانيه ، وغير ذلك من علوم .

وبعد : فهذه دراسة للأمثال في القرآن ، اعتمدتُ فيها على منهج الاستقراء والتحليل والتدبّر والتصنيف واستخلاص القواعد الكلّية واكتشاف الخصائص . وأرجو أن أكون قد وفقت في هذا العمل لاكتشاف منهج البيان القرآنيّ في الأمثال ، وهو عملٌ متواضع في خدمة القرآن العظيم ، إلاّ انّه مهمٌ بحدّ ذاته ، ويمكن أن يضاف إلى المكتبة القرآنية الزّاخرة بروائع درر هذا الكتاب العظيم .

وما سبق إليه علماء البيان في هذا المضمار لم اهمله في هذه الدراسة ، إلاّ أنني لم أتقيّد به ولا بمصطلحاته ، وذلك لأنني قصدت من الإفادة مما توصّل إليه السابقون التحرّرَ من القيود التي قد توقف عن البحث الذي يجب أن يسعى إلى الكمال ، وينشده باستمرار ، فلربّما لم يترك الأول للآخر في بعض الجوانب شيئاً ، ولربّما ترك في جوانب كثيرة أشياء كثيرة .

وفي التحرر من بعض مصطلحات علماء البيان آثرت الاستعمال القرآني ، واستخدام الألفاظ على وفق معانيها ودلالاتها العربية الأصيلة ، عن طريق الحقيقة

أو عن طريق المجاز ؛ فأرجو أن يلاحظ البلاغيّون هذا ، حتى لا يحاسبوني بمقتضى مصطلحات متأخرة قفزت عنها إلى ما قبلها ، لأدرس الأمثال القرآنية واضعاً في اعتباري الزمن الذي تنزّل فيه القرآن ، والأمة التي أنزل عليها غضّاً طريّاً .

وما ندّ عن فكري وملاحظتي ، أو فاتني إدراكه في هذا الموضوع ، أو ما يمكن أن أكون قد قصّرت فيه أو أخطأت ـ فسيأتي مِن بعدي مَن يتمّ ، أو يستدرك ، أو يصحّح ، من أهل البحث والتأمّل والنظر .

ويمكن ان تكون هذه الدراسة فصلاً من فصول إعجاز القرآن ، وفصلاً من فصول علم البلاغة ، إذ فيه رسمٌ لقواعد جانب مُهمّ من جوانب البيان القرآني المعجز ، وهو جانب الأمثال .

ربّ ألهمني الصواب ، وسدّدني ، وافتح لي فتحاً مبيناً ، واجعل عملي خالصاً لوجهك ، وارفعني به عندك ، وانفع به ، واهدِ به عباداً من عبادك ، وأتمم عليّ نعمتك ، إنك انت الوهّاب ، ولا حول ولا قوة إلّا بك ، واضف إلى صحيفة ابي ما تَمنّ به من اجرٍ على ثمرات الأعمال المبرورة التي توفقني إليها ، فانا غرسة من غرساته الكثيرات ، علمني كثيراً ، وأعطاني مفاتيح العلوم الاسلامية ، وربّاني ، وارشدني إلى طاعتك والعمل في مرضاتك والجهاد في سبيلك ، فاجزه عني وعن أمثالي خير الجزاء ، واكتب في صحيفته مثل ثواب أعمال من علمهم وكان السبب في هدايتهم ، وتربيتهم حتى كانوا علماء اعلاماً ، وقادة دعوةٍ وجهاد في سبيلك ، فقد بلغنا عن رسولنا الذي ارسلت لنا انك تمنح الأجر بفضلك العظيم على العمل الصالح وعلى ثمراته وآثاره وكلّ ما ينجم عنه من خير إلى يوم القيامة ، دون ان ينقص ذلك من اجور العاملين شيئاً .

تباركت ربّنا وتعاليت ، ولك الحمد على ما أنعمت به واوليت ، وصلّ اللهمّ ربّنا على نبيّك ورسولك محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، وعلى آل كلٍّ وصحب كلٍّ اجمعين .

مكة المكرمة في ٢٠ شوال سنة ١٣٩٩ هـ　　　　عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الفصل الأوّل

مُقدِّمات عامّة



al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

مُقدِّمَاتٌ عَامّة

ا ـ تعريفات

ما هو المراد من المثل في الاستعمالات القرآنية ؟

ـ ١ ـ

الأصلُ في المَثَل قائمٌ على تشبيه شيءٍ بشيءٍ لوجود عنصر تشابه أو تماثل بينهما ، أو لوجود أكثر من عنصر تشابه .

ففي هذا الوجود الكبير أشباه ونظائر بحسب تقدير الله وإتقان صنعته ، ألسنا نلاحظ في ظواهر الأشياء ممّا تدركه الحواسّ أشباهاً ونظائر في أنواعها وأجناسها وأصنافها وأفرادها ؟ ألسنا نلاحظ مثل ذلك ، في طبائع الأشياء من كلّ ما خلق الله من نبات ، وماء ، وهواء ، ونار ، وتراب ، ومعادن، وقوى ، وطاقات ، وغير ذلك ممّا بثّ في كونه من حيّ ؟ ألسنا نلاحظ مثل ذلك ، في طبائع النفوس ، وأحاسيسها ، وسلوكِ ذوي الإرادات الحرّة ؟

إنّ الملاحظة الذّكيّة تستطيع أن تتصيّد للشيء الواحد عدّة أشباه ونظائر من هذا الوجود الكبير .

ولا يشترط في الشبيه أن يكون مطابقاً من كلّ الوجوه ، بل يكفي فيه أن يُلْمَح منه جانب فيه شبَهٌ ما صالحٌ لتحقيق غرضٍ من أغراض التشبيه أو التمثيل .

وتمثيل شيءٍ بشيءٍ قد يكون تمثيلاً بسيطاً وقد يكون تمثيلاً مركّباً ، ففي كلٍّ منهما تُضْرَبُ الأمثال .

أمّا التمثيل البسيط : فهو المشتمل على تمثيل شيءٍ بشيءٍ آخر مفرد يماثله بوجه من الوجوه ، أو بجانب من الجوانب : كتمثيل من يحمل العلم ولا ينتفع به

بالحمار الذي يحمل أسفار العلم على ظهـره ، وكتمثيل الجاهل بالأعمى ، والعالم بالبصير ، وكتمثيل الجهل بالظّلمات ، والعلم بالنور ، وكتمثيل الجالس في مجلس العلم وهو لا يعي من العلم شيئاً بالخشبة المستندة إلى جـدار ، وكتمثيل القلوب القاسية التي لا تحركها عاطفة نبيلة بالحجارة الصلدة ، وكتمثيل العلم المنزل من عند الله بالغيث الذي ينزل من السماء ، وكتمثيل العلماء الدعاة إلى الله بنجوم الهدى، إلى غير ذلك .

وأمّا التمثيل المركّب : فهو التمثيل الذي يُقدّم على شكل لوحة تصوّر أكثر من مفرد ، والمماثلة الملاحظة بين هذه الصورة وبين الممثّل بها ليست مأخوذة من مفرد بعينه ، وإنّما هي مأخوذة منه ومن غـيره ، إمّا على شكل عناصـر مفردة متلاقية ، وإمّا على شكل وحدة مركّبة لا يشرط فيها التقابل الجزئي بين مفرداتها وبين مفردات ما ضرب له المثل .

فالتمثيل المركب الآتي على شكل عناصر مفردة متلاقية يمكن أن نمثّل له بما جاء في القرآن من تمثيل الإنفاق في سبيل الله باخلاص بالحبّة التي تزرع في أرض طيبة مباركة فتنبت سبع سنابل في كلّ سنبلة مئة حبّة ، فلوحة التمثيل هنا تشتمل على حبّ ، وزرع ، ونبات خصيب ، وسنابل سبع لكلّ حبّة ، ومئة حبّةٍ في كلّ سنبلة .

وإذا حللنا العناصر في هذا المثل أمكننا أن نرجعه إلى عدّة أمثـال بسيطة ، فالبذل يشبه عملية الزرع ، وتنمية الله له يشبه النبت الجيّد ، ومضاعفة الأجر تشبه تكاثر السنابل من الحبة الواحدة وتكاثر الحبّ في كلّ سنبلة .

وروعة مثل هذا التمثيل تأتي من الدقة في تلاقي العناصر وتناسقها في اللّوحة التمثيلية ، ومماثلة كلّ عنصر منها لعنصر مما ضرب له المثل .

والتمثيل المركب الآتي على شكل وحدة مركبـة متداخلة ، دون اشتراط التقابل بين مفرداتها وبين مفردات ما ضرب لـه المثل ، يمكن أن نمثل لـه بما جاء في القرآن من تمثيل المنافق المحتار المتردّد بين الخوف والطمع، وبين الايمان والكفر، وبين شهوات النفس المسيطرة على ساحتها وومضات الضمير ، بالذي استوقد ناراً

في ليل مظلم ، ليرى طريقه ، فلمّا أضاءت النار ما حوله وانكشفت عنه الظلمات انطمس بصره بسبب منـــه ، فانحجب عن إدراك النور الذي حوله ، فعاد إلى ظلمة قاتمة كان هو السبب فيها . هذا إذا ارتد بنفاقه ردة نهائية عن إدراك الحق والإيمان به ، فاللوحة التمثيلية بجملتها تمثل حالته دون اشتراط التقابل الجزئي بين مفردات المثل ومفردات ماضرب له المثل.أمّا إذا ظلّ المنافق متأرجحاً بين الإيمان والكفر وهو إلى الكفر أقرب ، فيمكن أن نطبق عليه المثل الثاني الذي جاء في القرآن للمنافق ، وهو مثل الذي يمشي في الظلمات فنزل عليه صيب[1] من السماء ، مصحوب برعد وبرق ، فإذا سمع الرعد الشديد جعل أصابعه في أذنيه من شدّة الصواعق حـذر الموت ، وإذا لمع البرق فأضاء له طريقه مشى فيه قليلاً ثم إذا عاد الظّلام وقف مكانه، لا يسير في طريق الهدى . إنّ هذا الصنف من المنافقين لم يفقد القدرة على رؤية طريق الهداية ولا على سماع إنذارات الجزاء العادل ، لكنّـه حـيران تتجاذبـه المتناقضات . فلوحة المثل بجملتها تمثّل صورة هذا الصنف المنافق المتردّد المتذبذب الحيران ، الذي تتجاذبه المتناقضات وهو قادر على أن يسمع الإنذارات التي تهزّ قلبه ، ولكنّه يعرض عنها ، وحين يتلامع له نور الهداية الذي يكاد يخطف بصره لقوته يتأثر به ، فيسير قليلاً في هدايته ، ثم تغلبه نوازع نفسه ، فتعـود بـه إلى ظلمات الكفر . وإذْ تمثل لوحة المثل هنا بجملتها هذا الصنف من المنافقين ، فقد يبدو من العسير علينا أن نجري تقابلاً جزئيّاً بين عناصر المثل ، وعناصر ماضرب لـه المثـل .

هذان المثلان للمنافقين قد جاءا في قول الله تعالى في أوائل سورة (البقرة) :

[مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ، فلمّا اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون (١٧) صمٌ بكم عميٌ فهم لا يرجعون (١٨) أو كصيّب من السّماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيطٌ بالكافرين (١٩) يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما اضاء لهم مَشَوْا فيه وإذا اظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم إنّ الله على كـلّ شـيءٍ قديـر (٢٠)] .

---

(١) الصّيب : المطر الغزير .

فقد اشتمل هذا النصّ كما هو واضح على مثلين للمنافقين ، ومن تدبّر هذين المثلين تبيّن لي أنهما مثلان لصنفين من المنافقين ، كما أوضحت آنفاً ، وليسا جميعاً لأيّ منافق ، فالتنويع في التمثيل يُقصد منه ــ والله أعلم ــ الاشارة إلى صنفين من المنافقين :

أ ــ فالأول للصنف الذي مَرَد على النفاق ، فهو كافر ضمناً دون تردد ، متظاهر بالاسلام كذباً وزوراً ، لذلك جاء في وصف أفراده :

« صمٌ بكم عميٌ فهم لا يرجعون » .

ب ــ والثاني للصنف المذبذب بين الإيمان والكفر وهو إلى الكفر أقرب ، وهذا الصنف لم تنطمس بصيرته انطماساً تاماً ، بل يتلامع له نور الحق أحياناً فيراه ، فيسير قليلاً فيه ، ثم يعود إلى حالته الأولى ، ولذلك قال الله في شأن أفراده : « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » أي إنهم لم يصلوا بعد إلى حضيض « صمٌ بكم عمي » .

تلخيص :

فالأصل في المثل قائم على تمثيل شيءٍ بشيءٍ لوجود عنصر أو أكثر من عناصر التشابه بينهما .

والتمثيل إمّا بسيط ، أو مركّب .

فالتمثيل البسيط : هو المشتمل على تمثيل مفرد بمفرد .

والتمثيل المركّب : هو الذي يقدّم على شكل لوحة تصوّر أكثر من مفرد ، ووجه الشبه فيه لا يكون مأخوذاً من مفرد بعينِه ، بل يكون مأخوذاً منه ومن غيره ، أو من الصورة العامة .

والتمثيل المركب : إمّا أن يكون على شكل عناصر مفردة متلاقية ، تقابل أمثالها في الممثّل له . وإمّا أن يكون على شكل وحدة مركّبة متداخلة ، تعطي بجملتها وجه الشبه ، دون ملاحظة التقابل الجزئي بين مفردات المثل ومفردات ماضرب له المثل .

ويطلق المثل في القرآن ويراد منه ذكر نموذجٍ أو أكثر لنوع من الأنواع ، أو عمل من الأعمال ، أو سنة من سنن الله ، نظراً إلى التشابه الموجود بين أفراد النوع الواحد ، أو نظراً إلى اطراد سنن الله وأعماله الحكيمة .

ثمّ يأتي القياس المستند إلى مبدأ شمول الأحكام للمتماثلات الذي تقضي به أصول الحقائق ، أو تقضي به حكمة الخالق في خلقه ، وفي تصاريف عدله ، وفي ثبات سننه ، فينتج أحكاماً عامّة تشمل سائر الأفراد المماثلة لما جاء في المثل .

وضمن هذا الإطلاق نستطيع أن نفهم المراد من قول الله تعالى في سورة (الاسراء) :

[ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل فأبى أكثر الناس إلاّ كفوراً (٨٩)] .

وقول الله تعالى في سورة (الزمر) :

[ولقد ضربنا للنّاسِ في هذا القرآن من كلّ مَثَلٍ لعلّهم يتذكّرون (٢٧)] .

وقول الله تعالى في سورة (الروم) :

[ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل . ولئن جئتهم بآية ليقولنّ الذين كفروا : إنْ انتم إلاّ مبطلون (٥٨)] .

فهذا التعميم الموجود في هذه الآيات إنما ينطبق على ذكر النماذج لكلّ نوع ليقاس عليها سائر الأفراد المشابهة .

ومن الأمثلة على هذا الإطلاق القرآني ما يلي :

١ ـ ضَرَبَ مَثَلٍ للّذين كفروا عن تصميمٍ وعنادٍ بامرأة نوح وامرأة لوط ، ومعلوم أنهما من أفراد هذا النوع .

٢ ـ وضَرْبُ مَثَلٍ للذين آمنوا في بيئة الكفر الطاغي ، بامرأة فرعون .

قال الله تعالى في سورة (التحريم) :

[ضرب الله مثلاً للذين كفروا امراة نوح وامراة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل : ادخلا النار مع الداخلين(١٠) وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امراة فرعون ، إذ قالت : ربّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة، ونجني من فرعون وعمله ، ونجني من القوم الظالمين (١١)] .

ويأتي القياس المستند إلى حكمة الله وعدله وثوابت سننه فيصدر أحكاماً عامّة على سائر أفراد النوع ، بحكم التماثل بين الأفراد الذي نبّه عليه ضرب المثل ببعض منها .

٣ ـ وما جاء في القرآن من ضرب الأمثلة القياسية ، كتمثيل الخلق الثاني الموعود به بالخلق الأول الذي جرت وتجري أحداثه ، وغدا يقيناً مشهوداً ، فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (الأنبياء) :

[كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنّا فاعلين (١٠٤)] .

ومن الأمثلة القياسية ما جاء في قول الله تعالى في سورة (آل عمران) :

[إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون (٥٩)].

هذا المثل تضمن حجّة قياسية ، وفي هذه الحجة ردّ على النصارى الذين ادّعوا أنّ عيسى عليه السلام هو الله ، أو ابن الله ، أو هو ثالث ثلاثة ، على اختلاف مذاهبهم في ذلك . وكانت شبهتهم في ذلك أنه ولد من أمّ بلا أب ، وأنه قد كان من معجزاته إحياء الموتى ، فقال قائلون منهم : إذن هو ابن الله ، وقال آخرون : بل هو الله ظهر على صورة انسان ، وقال الفريق الثالث : هو أحد أقانيم ثلاثة هي في مجموعها الله . وغلوا في عيسى غلوّاً كبيراً ، مع أنه عليه السلام لا يزيد على أنه عبد الله ورسوله ، وقد جعله الله آية للناس ، إذْ خلقه من أم بلا أب ، وآتاه من المعجزات وخوارق العادات ما يشهد له بصدق دعواه ، إذ قال لهم : إني رسول الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً ، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً .

ونقول في شرح الحجة القياسية التي اشتمل عليها هذا المثل : إذا كانت شبهة النصارى في عيسى عليه السلام تستند إلى أنه جاء من أمّ بلا أب ، فإنّ آدم أحرى بذلك منه ، فقد خلقه الله من التراب مباشرة من غير أب ولا أم ، وإذ يوافق النصارى على أن هذا في آدم باطل فحجتهم في عيسى أشـد بطلاناً ، لأن وجودها في عيسى أضعف من وجودها في آدم .

٤ ــ وما جاء في القرآن من بيان قصص الأوّلين ، وما جرى لهم من أحداث ، وما أجرى الله عليهم من سنن عقاب أو ثواب ، فقصصهم أمثال" ونماذج يقاس عليها نظائرها ، بمقتضى التشابه بين أفراد النوع ، وثبات سنن الله المستندة إلى حكمته وعلمه وعدله .

إن عرض عقوبات الأوّلين الذين كفروا وكذّبوا رسُل ربّهم ، أمثال" قرآنية من هذا القبيل ، وقد سمّاها الله أمثالاً ، لأنّها نماذج من حكمته في إقامة عدله ، وقطع دابر الفساد المنتشر في الأرض .

فمن ذلك عرض قصص إهلاك عادٍ وثمود وفرعون وجنوده وأصحاب الأيكة وقوم تبّع وقوم لوط ، وسائر الأمم التي قصّ الله علينا قصص إهلاكها .

قال الله تعالى في سورة (الزخرف) :

[ونادى فرعون في قومه . قال : يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ أفلا تبصرون ؟ (٥١) أم انا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين (٥٢) فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين (٥٣) فاستخفّ قومه فأطاعوه إنّهم كانوا قوماً فاسقين (٥٤) فلمّا آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين (٥٥) فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخِرين (٥٦)] .

(آسفونا) : أي أغضبونا .

فهذا الانتقام الذي انتقمه الله من فرعون وجنوده ، قد جعله الله مثلاً يتّعظ به من يأتي من بعدهم ، فيقيسون عليه تصاريف عدل الله في عباده ، ويلاحظون فيه نموذجاً من حكمة الله في معاقبة الطّغاة ، ومجازاة البغاة ، وسمّاه الله مثلاً ، فقال : « فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين » أي مثلاً للّذين يأتون من بعدهم من الأمم على عدل الله وانتقامه .

وقال الله تعالى في سورة (النور) :

[ولقد انزلنا إليكم آيات مبيّنات، ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظةً للمتقين (٣٤)] .

فأبانت هذه الآية تقسيماً ثلاثياً لما جاء في القرآن :

فالقسم الأول : آيات بينات ، وهي التي تتحدّث عن حقائق الدين ، وتكشف طريقي الخير والشرّ في السلوك الانساني .

والقسم الثاني : قصص الذين خلوا من قبل ، وسمّاها الله مثلاً ، لأن الغرض من ذكرها التنبيه على سنة الله في عباده ، نظراً إلى أنها نماذج من تصاريف الله وحكمته في مجازاة عباده .

وأبان الله هذا المعنى بقوله في سورة (الفتح) :

[سنّة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً (٢٣)] .

وبقوله في سورة (الأحزاب) :

[سنّة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً (٢٣)] .

ونظير ذلك قول الله تعالى في سورة (فاطر) :

[فهل ينظرون إلاّ سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً (٤٣) أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . وكانوا أشدّ منهم قوّة . وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض . إنّه كان عليماً قديراً (٤٤)] .

وقول الله تعالى في سورة (الأنفال) :

[قل للّذين كفروا : إنْ ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف . وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين (٣٨)] .

أي فانه يأتيهم ما أتى للأولين من عذاب وهلاك ، لأن ذلك من سنة الله في عباده فليقيسوا أحوالهم وأعمالهم على أحوال وأعمال من سبقوهم من الكافرين ، وليعلموا أن سنة الله لها صفة الثبات ، وأنّ عقاب الله سينزل بهم كما نزل بالذين من قبلهم إذا استمرّوا على ماهم عليه من كفر ومقاومة لدعوة الحقّ .

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى في سورة (غافر) :

[افلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اكثر منهم ، واشدّ قوةً وآثاراً في الأرض، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون(٨٢) فلمّا جاءتهم رسلُهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم . وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون(٨٣) فلمّا راوا باسنا قالوا : آمنّا بالله وحده وكفرنا بما كنّا به مشركين (٨٤) فلم يَكُ ينفعُهم إيمانُهم لمّا راوا باسنا، سنة الله التي قد خلت في عباده. وخسر هنالك الكافرون(٨٥)].

والقسم الثالث : هو ماجاء في القرآن من موعظة للمتقين ، وهو قسم النصائح والوصايا التي يرتقي بها المتقون إلى مراتب الأبرار ، فمراتب المحسنين .

ومن الشواهد القرآنية على استعمال المثل بمعنى النموذج الذي يقاس عليه من سنن الله في خلقه ، ما يلي :

أ ــ قول الله تعالى في سورة (الفرقان) :

[ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه اخاه هارون وزيراً (٣٥) فقلنا : اذهبا إلى القوم الذين كذّبوا بآياتنا فدمّرناهم تدميراً (٣٦) وقومَ نوحٍ لمّا كذّبوا الرسل اغرقناهم وجعلناهم للناس آية واعتدنا للظالمين عذاباً اليماً (٣٧) وعاداً وثمود واصحاب الرسّ وقروناً بين ذلك كثيراً (٣٨) وكُلاً ضربنا له الأمثال ، وكلاً تبرنا تتبيراً (٣٩)] .

أي وكل قوم من هؤلاء الأقوام الذين أهلكوا قد ضرب الله لهم الأمثال بمن سبقهم من الأمم التي أهلكها الله بكفرها وتكذيب رسُل ربّها وتمردها وفسقها .

ب ــ وقول الله تعالى في سورة (ابراهيم) :

[وانذر الناس يوم ياتيهم العذاب فيقولُ الذين ظلموا : ربّنا أخّرنا إلى أجل قريب نجبْ دعوتك ونتّبع الرسل اَوَ لم تكونوا أقسمتم من قبل : ما لكم من زوال(٤٤) وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال (٤٥)] .

أي وضربنا لكم الأمثال ممّا أنزلنا من عقاب في الذين كفروا من القرون الأولى ، لتتعظوا بها ، وتقيسوا أنفسكم عليهم ،وأعمالكم على أعمالهم ، ولتعلموا

أنه سيحلّ عليكم مثل الذي حلّ على الذين من قبلكم ، متى انتهت فترة إمهالكم ، وبقيتم على كفركم وتمردكم ومقاومتكم لدعوة الحقّ .

جـ ــ وقول الله تعالى خطاباً للمؤمنين في سورة (البقرة) :

[أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يأتكم مَثَلُ الذين خلَوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضرّاء وزُلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إنّ نصر الله قريب (٢١٤)] .

فمثل الذين خلوا من قبلهم وهم أتباع الرسل ، لم يأتهم النّصر حتى ابتلاهم الله بالبأساء والضرّاء وحتى زلزلوا ، وبذلك استحقوا النصر ودخول الجنة .

وفي الآية محذوف تقديره : ولمّا يأتكم مثل ما أتى الذين خلوا من قبلكم الذي هو مَثَل" من سنة الله فيهم .

د ــ وقول الله تعالى في سورة (محمد) :

[الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم (١) والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزّل على محمّد وهو الحقّ من ربّهم كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم (٢) ذلك بأنّ الذين كفروا اتبعوا الباطل وأنّ الذين آمنوا اتبعوا الحقّ من ربّهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم (٣)] .

(وأصلح بالهم) : أي وأصلح أحوالهم وشؤونهم وخواطرهم ، لأن البال يطلقُ لغة على الحال والشأن والخاطر .

يبدو ــ والله أعلم ــ أنّ هذه الآيات تتحدّث عن ناسٍ معينين عاصروا النبي محمداً ﷺ ، وهؤلاء فريق منهم كفروا وصدّوا عن سبيل الله فأضلّ الله أعمالهم ، أي حكم عليهم بالضلالة ، والحكم بالضلالة يستتبع الجزاء العادل بالعقاب . وفريق منهم آمنوا بالله واليوم الآخر ، وآمنوا بكلّ ما نُزّل على محمد علماً منهم بأنه هو الحقّ من ربّهم ، فكفّر الله بذلك عنهم سيّئاتهم،وأثابهم ثواباً معجلاً فأصلحبالهم.

وحكم الله بالضلالة على الذين كفروا ، وحكمه بالهداية للذين آمنوا ؛ من مظاهر حكمته جلّ وعلا : فالذين كفروا اتبعوا الباطل ، ومن اتبع الباطل كان ضالاً، فكان الحكم عليهم بالضلالة هو الحكم الحق العادل . والذين آمنوا اتبعوا الحق

المنزّل عليهم من ربّهم ، ومن اتّبع الحقّ كان مهتدياً ، فكان الحكم لهم بالهداية هو الحكم الحقّ العادل ، وهذا يستتبع بفضل الله الجزاء بالثواب .

وهؤلاء الذين تحدث القرآن عنهم من الفريقين ، هم أمثال ضربهم الله للناس : فكلّ من جاء بعدهم من الناس وجد فريق الذين كفروا مثلاً يتعظ به ، فلا يتّبع طريقته ، حتى لا يكون من الضالين ، فينزل به جزاء الله العادل . ووجد فريق الذين آمنوا مثلاً صالحاً يقتدي به ، فيتّبع طريقته فيكون من المهتدين ، فيظفر بفضل الله وثوابه الجزيل ، ويكفّر الله عنه سيئاته ، ويصلح باله .

وكهذه الأمثال التي ضربها الله للناس في هذه الآيات يضرب الله للناس أمثالهم .

ـ ٣ ـ

وتطلق كلمة (المثل) في القرآن ويراد منها وصف الشيء بعبارة كلامية ، نظراً إلى أنّ الأوصاف التي تذكر لشيءٍ ما ترسم له مثالاً وصفيّاً بدلالات تعبيريّة .

فتقع كلمة (المثل) بدل كلمة (الوصف) فمن ذلك ما يلي :

١ ـ قول الله تعالى في سورة (الرعد) :

[مثل الجنة التي وُعد المتقون : تجري من تحتها الأنهار أكلُها دائم وظلّها . تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار (٣٥)] .

أي : وصف الجنة التي وُعد المتقون أنها تجري من تحتها الأنهار ، وأنّ أكُلَها دائم ، وأنّ ظلّها دائم كذلك .

فالمثال الذي رُسِم للجنة في هذاالنصّ ضمن لوحة تعبيريّة ، قد أُبرز فيه رسم أشجارها ذات الثمار الدائمة التي لا تنقطع ، وأُبرِز فيه رسم ظلّها الدائم .

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (محمد) :

[مثل الجنة التي وُعد المتقون : فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسنٍ ، وأنهار من لَبَنٍ لم يتغيّر طعمه ، وأنهار من خمرٍ لذّةٍ للشاربين ، وأنهارٌ من عسلٍ مصفّى ، ولهم فيها من كلّ الثمرات ومغفرة من ربّهم ... (١٥)] .

مثل الجنة : أي وصف الجنة • والماء الآسن : هو الذي تغير طعمه وظهر نتنه فهو غير صالح للشرب •

فالمثال الذي رُسم للجنّة في هذا النّص ضمن هذه اللّوحة التعبيرية ، قد أبرز فيه رسمٌ لمجموعة أنهارٍ مختلفة الأنواع : فأنهار من ماءٍ غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه ، وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربين ، وجاء في بيان آخر أنها لا غول فيها ولا يُنْزِف عنها شاربُها (أي : لايسكر ولا يذهب عقله) وأنهارٌ من عسل مصفّى • وأبرز فيه أيضاً أن لأهل الجنة من كلٍّ الثمرات ، وأنّ لهم مغفرةً من ربّهم •

٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (الفتح) :

[محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفَّار رحماءُ بينهم ، تراهم ركّعاً سُجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضْواناً ، سيماهم في وجوههم من اثر السجود ذلك مثلهم في التوراة • ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار • وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً (٢٩)] •

ذلك مثلهم في التوراة : أي ذلك وصفهم فيها •

ومثلهم في الإنجيل : أي وصفهم في الإنجيل •

أخرج شطأه : الشَطْءُ : فرخ الزرع والنخل • وشطءُ الزرع نباته وفراخه•

فوصف أصحاب محمد ﷺ في التوراة رسمته صورة تعبيرية كلامية أُبرز فيها ما يلي :

أولاً : شدة بأسهم في قتال الذين كفروا • وهذا الوصف يلاحظ فيه أبطال أشدّاء مؤمنون مستعلون بقوتهم وبأسهم على الكفار •

ثانياً : رحمتهم العظيمة وتواضعهم فيما بينهم • وهذا الوصف يُلاحظ فيه صور العطف والتآخي والتراحم والتوادّ والتواضع فيما بينهم •

ثالثاً : عبادتهم الكثيرة المخلصة لله تعالى ، فهم ركّع سجود يدعون الله تعالى أن يهبهم من فضله في الدنيا والآخرة ، وأن يُسْبِل عليهم رضوانه ، ويلاحظ في هذا الوصف مشهد عباداتهم في الصلوات والدعاء .

أمّا وصفهم في الانجيل فقد جاء على شكل مَثَلٍ تشبيهي من الزرع وقد صوّر هذا المثل التشبيهي نشأتهم ، ونماءهم ، وتكاثرهم ، وتآزرهم ، ووحدة جماعتهم .

٤ ـ وقول الله تعالى في سورة (الأنعام) :

[او من كان ميتاً فاحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارجٍ منها . كذلك زيّن للكافرين ما كانوا يعملون (١٢٢)] .

كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها : أي كمن وصفه الذي نعبّر عنه في صورة كلاميّة تماثل حقيقته ، أنه في الظلمات ليس بخارجٍ منها ، وهذا مثل الكافر المصرّ على كفره، الذي لا يريد أن يخرج من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان والاسلام.

وفي هذه الآية يمثّل الله تبارك وتعالى من لا دين له ولا إيمان في قلبه بالميّت ، فإذا آمن وأسلم أحياه الله ، وجعل له نوراً يمشي به في الناس ، فالحيّ مثال للمؤمن المسلم .

٥ ـ وقول الله في شأن يهود بني النضير في سورة (الحشر) :

[لأنتم اشدّ رهبةً في صدورهم من الله . ذلك بأنهم قوم لا يفقهون (١٣) لا يقاتلونكم جميعاً إلاّ في قرىً محصّنة او من وراء جُدُر . بأسهم بينهم شديد . تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . ذلك بأنهم قوم لا يعقلون (١٤) كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال امرهم ، ولهم عذاب اليم (١٥)] .

كمثل الذين من قبلهم قريباً : أي كصفة الذين من قبلهم ، وهم يهود بني قينقاع ، ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ، وقيل كصفة أهل بدر .

فأبان النصّ أنّ وصف بني النضير كوصف بني قينقاع الذين ذاقوا قبلهم على أيدي المسلمين بقيادة الرسول ﷺ وبال أمرهم، فأجلاهم الرسول من المدينة بسبب ما كان منهم من شرّ ، ونقض للعهد والميثاق .

وعقب النصّ السابق قال الله تعالى :

[كمثل الشيطان إذْ قال للإنسان : اكْفُرْ • فلمّا كفر قال : إنّي بريءٌ منك ، إني أخاف الله ربّ العالمين (١٦) فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدَيْن فيها • وذلك جزاء الظالمين (١٧)] •

وفي هذا النصّ تشبيه حال المنافقين وحلفائهم من يهود بني النضير بحال الشيطان إذْ قال للإنسان : اكفر • فلمّا كفر قال : إني بريء منك •

وذلك أن المنافقين قالوا لهم : « لئن أُخرجتم لنخرُجَنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإنْ قُوتلتم لننصُرَنّكم » •

ولكنّ الله قال في شأن المنافقين كما جاء عقبه في السورة نفسها : « والله يشهد إنهم لكاذبون (١١) لئِن أُخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قُوتلوا لاينصرونهم • ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثمّ لا يُنصرون (١٢) » •

وكذلك كان من أمرهم حين حاصرهم الرسول وأجلاهم عن المدينة ، لم ينصرهم إخوانهم المنافقون • فكان حال المنافقين وإخوانهم من يهود كحال الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر • وكان الوصف هنا شبيه الوصف هناك •

٦ ــ وقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ في سورة (الإسراء) :

[وإذا قرأتَ القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً (٤٥) وجعلنا على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً • وإذا ذكرت ربّك في القرآن وحده ولّوْا على أدبارهم نفوراً (٤٦) نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذْ هم نجوى إذ يقول الظالمون : إنْ تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً (٤٧) انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلاً (٤٨)] •

انظر كيف ضربوا لكَ الأمثال : أي انظر كيف وصفوك بما ليس فيك ظلماً وعدواناً ، فقالوا : رجل مسحور ، وقالوا ــ كما جاء في نصوص أخرى ــ : شاعر ، ومجنون ، وكذّاب •

ونظيره ما جاء في سورة (الفرقان) :

[وقال الذين كفروا : إن هذا إلاّ إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً (٤) وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً (٥) قل : أنزله الذي يعلم السرّ في السماوات والأرض ، إنّه كان غفوراً رحيماً (٦) وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، لولا أُنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً (٧) أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها . وقال الظالمون : إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً (٨) انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلايستطيعون سبيلاً (٩)] .

أي انظر كيف وصَفُوك بما أنت منه بريء ، فقالوا : مفترٍ كذّاب ، وقالوا: رجلٌ مسحور .

٧ ــ وقول الله تعالى في سورة (الزخرف) :

[وجعلوا له من عباده جزءاً . إنّ الانسان لكفور مبين (١٥) أم اتخذ مما يخلق بناتٍ وأصفاكم بالبنين ؟! (١٦) وإذا بُشّر أحدهم بما ضرب للرحمنِ مثلاً ظلّ وجهه مسودّاً وهو كظيم (١٧)] .

بما ضرب للرحمن مثلاً : أي بما وصف الله به من أنّ الملائكة بنات الله .

لقد وصف أهل الجاهلية الله بهذا الوصف مع أنهم يكرهون لأنفسهم البنات ، فاذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسودّاً وهو كظيم ، يكظم غيظه ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشّر به ، أيدسّه في التراب أم يمسكه على هون ؟!

وجعلوا له من عباده جزءاً : أي وجعلوا له من عباده الذين خلقهم مواليد له ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً . وذلك إذ زعموا أن الملائكة إناث ، وأنّهنّ بنات الله .

ويقال لغة : أجزأتِ المرأة إذا ولدت أُنثى ، وعليه قول الشاعر العربي :

إنْ أجزَأتْ حُرّةٌ يوماً فلا عَجَبٌ قد تُجْزِىء الحُرّةُ المِذْكار أحيانا

أي إن ولدت امرأة حُرّةٌ بنتاً فلا عجب ، فقد تلد الإناث أحياناً الحرّة التي من عادتها أن تنجب الذكور .

٨ ـ وقول الله تعالى في سورة (الشورى) :

[فاطر السماوات والأرض . جعل لكم من انفسكم ازواجاً . ومن الانعام ازواجاً . يذرأكم فيه . ليس كمثله شيء وهو السميع البصير (١١)] .

فيمكن أن نقول في « ليس كمثله شيء » : ليس كوصفه شيء أي لا يشبه أوصافه شيء من الأشياء . وذلك لأن المِثْلَ والمَثَل يستعملان بمعنى الوصف .

وبهذا ينحل الإشكال الذي ألجأ العلماء إلى تأويل اجتماع كلمتي تشبيه ، هما: (الكاف) و (مثل) وهل الكاف زائدة ، أو للتأكيد ، أو أن المراد نفي مثل المثل ، فنفي المثل من باب أولى ، إلى غير ذلك من كلام طويل حول هذا التعبير .

ونظيره « فمثله كمثل الكلب » و « فمثله كمثل صفوان عليه تراب » و « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً » و « ومثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت » .

والمعنى : ووصف من أخلد إلى الأرض واتبع هواه في كدحه سعياً لبلوغ ما يهوى ويشتهي من الحياة الدنيا يشبه وصف الكلب ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، فهو لاهث باستمرار ، وكذلك من أخلد إلى الأرض واتبع هواه هو لاهث سعياً وراء أهوائه وشهواته باستمرار ، لا يقر له قرار .

ووصف الذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر يشبه وصف من يزرع زرعه في تراب رقيق على حجر صلد أملس ، إذا نزل عليه الوابل من السماء انسفح التراب والحب ، ولم يخرج الزرع .

ووصف المنافقين الذين مردوا على النفاق يشبه وصف الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون .

ووصف الذين اتخذوا من دون الله أولياء يلجأون إليهم ويعتمدون عليهم، يشبه وصف العنكبوت التي اتخذت لنفسها بيتاً واهياً، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت.

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم نصوصاً قرآنية كثيرة ، وبتفسير كلمة (مَثَل) أو (مِثْل) بمعنى الوصف تنحل إشكالات لفظية كثيرة يتعب كثير من

المفسّرين في تخريجهاوتوجيهها ، مع أنّ المفسّرين قد ذكروا أنّ كلمة (مَثَل) قد جاءت بمعنى الوصف في عدة آيات ، منها « مَثَلُ الجنة التي وُعد المتقون » قالوا : وصف الجنة . ومنها « ولله المَثَلُ الأعلى » أي له الوصف الأعلى .

الخلاصة :

فتحصّل لدينا أن كلمة (مَثَل) أو مِثْل) قد ترد في القرآن بمعنى وصف الشيء بعبارة كلامية ، نظراً إلى أنّ الأوصاف التي تذكر لشيء ما ترسم له مثالاً وصفياً بدلالات تعبيرية كلامية .

ب ـ اعتراض الذين كفروا على بعض الأمثال القرآنية

ذكر المفسرون أنّ فريقاً من المنافقين وفريقاً من المشركين وفريقاً آخر من اليهود ، أوردوا شبهة تتعلّق ببعض الأمثال القرآنية ، وهي التي ضرب الله فيها مثلاً بالذباب ، والعنكبوت ، والنحل ، والنمل ، ونحو ذلك . فقالوا : لا يليق ذكر مثل هذه المحقرات بكلام البلغاء ، واتخذوا ذلك حجّةً للطعن بصحة نسبة القرآن إلى الله تعالى .

وقد ردّ الله عزّ وجلّ هذه الشبهة بقوله في سورة (البقرة) :

[إنّ الله لا يستحيي ان يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها . فأمّا الذين آمنوا فيعلمون انه الحقّ من ربّهم . وامّا الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟! يُضلّ به كثيراً ، ويهدي به كثيراً ، وما يضلّ به إلاّ الفاسقين (٢٦) الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون في الأرض. أولئك هم الخاسرون (٢٧)] .

فأبان الله تعالى في هذا أنه لا يستحيي أن يضرب مثلاً أيّ مثل،سواء" أكانهذا المثل بعوضة أو شيئاً آخر فوق البعوضة ، لأنّ الله تعالى يقول الحقّ ، والله لا يستحيي من الحقّ .

حين يكون التمثيل بالمخلوقات التي يراها الناس في أعينهم حقيرة طريقاً قريباً لبيان الحقّ ، فليس في ذكرها والتمثيل بها ما يدعو إلى الاستحياء . يضاف إلى

هذا أن الله تبارك وتعالى قد خلق جميع الكائنات الحية ، من أدناها إلى أرقاها ، وجعل في كلّ نوعٍ منها أدلّة كثيرة على كمال قدرته وكمال علمه وكمال حكمته • ووجّه أنظار الناس إليها ليتفكروا في خلقها ، ويتأمّلوا في إتقان صنعها ، حتى تكون طريقتهم لمعرفة خالقهم وخالق كلّ شيء • فهل استحيا سبحانه وتعالى من خلقها ووضعها أمام أسماع الناس وأبصارهم حتى يستحيي من ذكرها والتمثيل بها ؟

إنّ في هذه المخلوقات التي يحتقرها الناس آيات مدهشات على عظمة الخالق وحكمته ، وقد ارتقت هذه المخلوقات في نظر العلوم الحديثة إلى مستوى الدراسات المستفيضة المضنية الجادّة ، وكتب فيها العلماء كتباً كثيرة ، سجّلوا فيها خصائص هذه المخلوقات وصفاتها وأنواع سلوكها ، فلم يعُد التمثيل بها لدى كبار علماء الكون أمراً مستنكراً ولا مستهجناً ، بل مدعاة لتوجيه الاهتمام بشأنها ودراسة أنواعها بإمعان، وقد كان استنكار الذين كفروا للتمثيل بها ناشئاً عن جهل أو تجاهل، فبعضهم كان جاهلاً ، وبعضهم كان متجاهلاً •

أمّا المؤمنون فالعلماء منهم يفهمون الأمثال القرآنية ويتعظون بها ، والآخرون الذين قد لا يصلون إلى مستوى الفهم المطلوب يعلمون أنّها حقٌّ من عند ربهم ، فيؤمنون بها ، لأنهم آمنوا بأنّ القرآن كلّه تنزيل من لدن حكيم حميد •

وفي المؤمنين جميعاً قال الله تعالى : « فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنه الحقّ من ربّهم » •

ولمّا كان إنكار المنكرين ناشئاً عن كفرهم وفسقهم ، كان من حكمة الله وعدله أن يحكم بضلالتهم •

ولمّا كان علم المؤمنين بأنه الحقّ من ربّهم ثمرة إيمانهم ، كان من حكمة الله أن يحكم لهم بالهداية •

وفي الحكم بالضلالة والحكم بالهداية على وفق الحكمة قال الله تعالى في ختام الآية : « يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يُضلّ به إلاّ الفاسقين » •

* * *

الفصل الثاني

أقسام الأمثال


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

أقسام الأمثال

- ١ -

تفسيم اول للأمثال

سبق في التعريفات بيانُ أنّ المثَلَ القائم على تمثيل شيءٍ بشيءٍ لوجود عنصرٍ أو أكثر من عناصر التشابه بينهما ينقسم إلى قسمين :

١ ـ التمثيل البسيط :

وهو المشتمل على التمثيل بمفرد ، لأنّ المُمَثَّل له يشابه الممثَّل به من وجه من الوجوه أو جانب من الجوانب ، كتمثيل الجاهل بالأعمى ، والعالم بالبصير ، والجهل بالظلمات ، والعلم بالنور .

٢ ـ التمثيل المركب :

وهو الذي يُقدَّم على شكل لوحةٍ تصور أكثر من مفرد ، ووجه الشبه فيه لا يكون مأخوذاً من مفردٍ بعينه ، بل يكون مأخوذاً منه ومن غيره ، أو من الصورة العامّة .

والتمثيل المركّبُ ينقسم إلى قسمين :

أ ـ إما أن يكون على شكل عناصر متلاقية تقابل أمثالها في المُمَثَّلِ له ، كتمثيل الانفاق في سبيل الله باخلاص ، بالزرع الذي تزرع فيه الحبوب في أرض طيبة مباركة فتنبت الحبة منها سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة . فالانفاق يشبه عملية الزرع ، وتنمية الله له يشبه النبت الجيّد ، ومضاعفة الأجر تشبه تكاثر السنابل من الحبة الواحدة ، وتكاثر الحبّ في كلّ سنبلة .

ب ـ وإمّا أن يكون على شكل وحدة مركبةٍ متداخلة ، تعطي بجملتها وجه الشبه ، دون ملاحظة التقابل الجزئي بين الممثلِ به والممثلِ له .

كالمثل الذي ضربه الله لفريق من المنافقين إذ قال في سورة (البقرة) :

[مَثَلُهم كمثل الذي استوقد ناراً ، فلمّا اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون (١٧) صمٌ بكم عميٌ فهم لا يرجعون (١٨)] .

وكالمثل الذي ضربه الله لفريق آخر من المنافقين إذ قال عقب النص السابق :

[أو كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين (١٩) يكاد البرق يخطفُ ابصارهم كلما اضاء لهم مَشَوْا فيه وإذا اظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير (٢٠)] .

ـ ٢ ـ

تفسيم ثانٍ للأمثال

من جهة كون الممثّلِ به والممثّلِ له ممّا يدركُ بالحسّ الظاهر أو لا يدركُ به

كل معلوم إما أن يكون شيئاً يمكن إدراكه بالحواس الخمس الظاهرة : السمع والبصر والشمّ والذوق واللمس ، وإمّا أن يكون معنى من المعاني ، أو شعوراً يحسّ به الوجدان ، كالأفكار ، والعواطف ، والانفعالات ، وكلّ أنواع الشعور النفسي الباطن .

وبتأمل قليل نستطيع أن تتبين أنّ تمثيل شيءٍ بشيءٍ قد يكون بين مدركين بالحسّ الظاهر ، كالمدركات الفكرية والوجدانية ، وقد يكونُ الممثل به مدركاً بالحسّ الظاهر ، والممثل له غير مدركٍ به ، وقد يكون عكس هذا ، وقد تأتي الصورة التمثيلية مختلطةً من القسمين .

فالتقسيم العقلي يقدّم لنا خمسة أقسام :

القسم الأول : تمثيلُ مدركٍ بالحسِ الظاهر بمدركٍ بالحسّ الظاهر .

القسم الثاني : تمثيل مدركٍ فكري أو وجداني بمدركٍ فكري أو وجداني .

القسم الثالث : تمثيل مدركٍ فكريّ أو وجداني بمدركٍ بالحسِ الظاهر .

القسم الرابع : تمثيل مدركٍ بالحسّ الظاهر بمدركٍ فكريّ أو وجداني .

القسم الخامس : الصورة التمثيلية المختلطة التي تمتزج فيها الأشياء المدركة بالحسّ الظاهر بالمدركات الفكرية أو الوجدانية .

امثلة لهذه الأقسام الخمسة

١ ــ فيمكن أن نمثل للقسم الأول « وهو تمثيل مدركٍ بالحسِ الظاهر بمدركٍ بالحسّ الظاهر » بتمثيل العودة إلى الحياة بعد الموت ، بالنبات الذي يعود إلى الحياة عن طريق بزوره ، بعد حصاده الذي يشبه موت حياته الخضراء .

فالصورتان بينهما تماثل ، وكلتاهما ممّا يدركُ بالحسّ الظاهر .

ونظيره تمثيل أصحاب محمد وتكاثرهم بزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه . وتمثيل عيسى عليه السلام إذ جاء من أمّ فقط ، بآدم عليه السلام إذْ جاء من دون أب ولا أمّ . فكلا المتماثلين في المثلين ممّا يدركُ بالحسّ الظاهر .

٢ ــ ويمكن أن نمثّل للقسم الثاني « وهو تمثيل مدرك فكريّ أو وجداني بمدرك فكري أو وجداني » بتمثيل الخشية منَ الناس بالخشية من الله ، قال الله تعالى في سورة (النساء) :

[ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا ايديكم واقيموا الصلاة وآتوا الزّكاة . فلمّا كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله او اشدّ خشية .؟!(٧٧)].

ويمكن أن نمثّل له بأن نلاحظ شبهاً بين النّفاق والحيرة ، أو بين النفاق والقلق النفسي ، وشبهاً بين الإيمان وطمأنينة النفس ، أو بين الإيمان والسعادة ، وشبهاً بين لذّة الوصول إلى المعرفة ولذّة تحقيق شهوة من شهوات النفس .

٣ ــ ويمكن أن نمثّل للقسم الثالث « وهــو تمثيل مُدْرَكٍ فكريّ أو وجداني بمدرَكٍ بالحسّ الظّاهر » بتمثيل العلم بالنور ، وتمثيل الإيمان بالبصر ، أو بالهداية إلى الطريق ٠ وتمثيل الجهل بالعمى ٠ وتمثيل الكفر بالسير في الظلمات٠ وتمثيل من يتخذ من دون الله أولياء بالعنكبوت التي تنسج لنفسها بيتاً واهيــاً ٠ وتمثيل من ينقض العهد بالمرأة الحمقاء التي نقضت غزلها من بعد قــوة أنكاثاً ٠ وتمثيل إبطال أعمال الذين كفروا بربّهم برماد اشتدّت به الرّيح في يوم عاصف فنسفته وبدّدته فلا تجد له أثراً ٠ وتمثيل حال المنافق الذي مرد على النفاق بالذي استوقد ناراً فلمّا أضاءت ماحوله ذهبَ بصره فهو لايرى شيئاً ٠ وتمثيل حــال المنافق المتردّد المتذبذب بين الإيمان والكفر وهو إلى الكفر أقرب بمن يكون في صيّب من السماء فيه ظلـّمات ورعد وبرق ، إنه يخشى الصواعق فيجعل أصابعه في أذنيه ، وتندفع نفسه إلى النجاة فيمشي قليلاً في ضوء البرق المتلامع ، ثم يرجع إلى حالته فيقف في الظلمات ، هــذه هي صورة الحالة النفسية للمنــافق المتردد الحيران ٠

وأمثلة هذا القسم كثيرة جدّاً لما فيه من تقريب المعنويات بالحسّيات ٠

٤ ــ ويمكن أن نمثّل للقسم الرابع « وهو تمثيل مُدْرَكٍ بالحسّ الظاهر بمُدْرَكٍ فكريٍّ أو وجداني » بتمثيل الأمُ بالمحبّة ٠ وتمثيل الأعداء بالأحقــاد والكراهية ٠ وتمثيل الانفجارات النارية والانفجارات البركانية بالغيظ العنيف في نفوس المغتاظين ، ومنه وصف جهنّم في قول الله تعالى في سورة (الملك) :

[تكاد تَميَّزُ من الغيظ ٠٠٠ (٨)] ٠

فمثّل ضغط توقّدهــا الداخلي بالغيظ في نفوس المغتاظين ، الذي يضغط داخل الصدور ، فهي منه تكاد تتمزق وتتميز ٠

٥ ــ ويمكن أن نمثّل للقسم الخامس « وهو المشتمل على الصورة التمثيلية المختلطة التي تمتزج فيهــا الأشياء المدركة بالحسّ الظاهر بالمدركات الفكرية أو الوجدانية » بالتمثيل القرآني للحيــاة الدنيا المنحصرة باللّعب واللّهــو والزينة

والتفاخر والتكاثر ؛ بغيثٍ من السماء أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فيصفر ، ثم يأتي حصاده فيتكسّر ويتحطم وينتهي • فالممثّلُ له الحياة الدنيا ، وفيهـا أشياء مدركةٌ بالحسّ الظاهر ، وأمورٌ فكرية ، وأمورٌ نفسيّة وجدانية ، وكل هذه الأمور ممتزجة في لوحةٍ متحركة بحركة الزمن • ثـم يأتي التمثيل ، فنجده لوحة صغرى من الحياة نفسها ، وفيها جملة عناصر : غيثٌ من السماء ، نجمَ عنه نبات بديع تحرّكت لمشهده نفوس الزرّاع بالاعجاب ، وهـذا أمرٌ وجداني ، ثمّ مرّ الزمن من اللّوحة التمثيلية المتحرّكة ، فآذن دور النبات بالانتهاء فهاجَ فاصفرّ ، ثمّ تكسّر وتحطّم وانتهى ، وكذلك الحياة الدنيا بكلّ ما فيها •

ففي هذه اللّوحة التمثيلية دخلت أشياء تدرك بالحسّ الظاهر ، وأشياء أخرى فكرية ووجدانية ، ومنها الحركة ، والحياة ، ومرور الزمن ، وأحاسيس النفوس ومشاعرها ، فالتمثيل بهذه اللوحات الممتزجة الجامعة من أرقى أنواع التمثيل •

والنص القرآني الذي اشتمل على هذا التمثيل هو قول الله تعالى في سورة (الحديد) :

[اعلموا انّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والاولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور (٢٠)]•

أعجب الكفّار : أي أعجب الزّرّاع •

يهيج : أي يصفرّ وييبس •

— ٣ —

تقسيم ثالث للأمثال

من جهة كون المَثَل صورة منتزعة من الواقع او من الخيال

لدى تتبّع الأمثال يتبين لنـا أن الصورة التمثيلية الواردة في المثل : إما أن تكون صورة منتزعة من الواقع ، وإما أن تكون صورة منتزعة من الخيال •

أ ـ فمن أمثلة الصورة التمثيلية المنتزعة من الواقع تمثيل الذي ينفق ماله رئـاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، بزارع يزرع بزوره في تراب رقيق مبسوط على صخرة صمّاء ملساء ، إذا نزل عليها غيث السماء سفح التراب والبزور معه ، وجرفها السيل ، فترك مزرعته حجراً صلداً أملس لاشيء عليـه ، فهو لايطمع بنبات ولا ينتظر حصاداً • فالصورة التمثيلية هنا منتزعة ومقتبسة من الواقـع في الأحداث الكونية •

ومنها أيضاً تمثيل الذي ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من نفسه لقاعدة الإيمان في قلبه ولفضيلة خلق الجود عنده ، بزارع حصيف عاقل ، يزرع حبّهُ في جنّةٍ سمينة التربة ، بربوة لا تجرفها السيول ، فنزل عليها المطر الغزير فآتت أُكُلها ضعفين ، فإن لم يُصبها المطر الغزير كفاها الطلّ ـ وهو المطر الخفيف ـ لتُعطي الثمر الطيب المضاعف •

فهذه الصورة التمثيلية صورة منتزعة ومقتبسة من الواقع •

ب ـ ومن أمثلة الصورة التمثيلية المنتزعة من الخيال ، تمثيل طلع شجرة الزّقّوم التي تخرج في أصل الجحيم بصورة رؤوس الشياطين •

فالناس لايعرفون صورة رؤوس الشياطين ، ولكن في خيالهم صورة قبيحة منفّرة مخيفة للشياطين ورؤوسهم ، وهي أقبح وأخوف صورة يتخيّلونها •

وقد جرى تمثيل طلع شجرة الزّقوم في جهنّم بأقبح وأخوف صورة يمكن أن يتخيّلها الناس • إنّ الشياطين أقبح وأخبث ما في الوجود ، والصورة التي ينسجها خيال الناس لهم هي أقبح وأخبث صورة،فالتمثيل بها تمثيل منتزع من الخيال، لا من الواقع ، وقد يكون الواقع كذلك ، لكنّ المخاطبين قد خوطبوا على مقدار ما في خيالهم • وفي عرض هذا التمثيل يقول الله تعالى في سورة (الصافات) :

[أذلِكَ خيرٌ نزُلاً أم شجرة الزقوم ؟! (٦٢) إنا جعلناها فتنـة للظالمين (٦٣) إنّهـا شجرة تخرج في أصل الجحيم (٦٤) طلعُها كأنه رؤوس الشياطين (٦٥) فإنّهم لآكلون منها فمالئون منها البطون (٦٦) ثمّ إنّ لهم عليها لشوباً من حميم (٦٧) ثـمّ إنّ مرجعهم لإلى الجحيم (٦٨)] •

نُزُلاً : النُّزُل : المَنزِل . والنُّزُل : الرِّزق وما يُهيّأ للضيف من ضيافة، والجمعُ الأنزال وهي المآكل التي يُتَقَوَّتُ بها ، وبهذا المعنى فُسِّرت كلمةُ « نُزُلاً » هنا .

شجرة الزَّقوم : هي شجرة خبيثة تنبت في أصل الجحيم ، وقد جاء ذكرها في القرآن في ثلاثة مواضع :

الأول : هذا الذي في (الصافات) .

الثاني : ماجاء في سورة (الدخان) :

[إنّ شجرة الزَّقّوم (٤٣) طعام الأثيم (٤٤) كالمهل يغلي في البطون (٤٥) كغلي الحميـم (٤٦)] .

الثالث : ما جاء في سورة (الواقعة) :

[ثمّ إنكم ايها الضالّون المكذّبون (٥١) لآكلون من شجرٍ من زقّوم (٥٢) فمالئون منها البطون (٥٣) فشاربون عليه من الحميم (٥٤) فشاربون شرب الهيم (٥٥) هـذا نزُلهم يوم الدين (٥٦)] .

فشجرة الزّقوم شجرة جهنميّة كريهة المنظر ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، وهي طعام الأثيم من نزلاء جهنم المعذّبين فيها ، إنهم فيها مضطرون أن يأكلوا منها ، لأنّهم لايجدون ما يأكلونه غيرها ، حين يشتدّ بهم الجوع ، فيملؤون منها بطونهم، وما يؤكل من هذه الشجرة الجهنّميّة يشبه المُهْل ، والمُهْل اسم يطلق على المنصهر الذائب من المعـادن ، ويطلق على نوع من القطران ، ويطلق على عَكَر الزيت ، ويطلق على العكر الذي يغلي من الزيت .

وما يؤكل من شجر الزّقوم يغلي في البطون مـن شدة حرارته ، كما يغلي الحميم . فيشتد ظمأ المعذبين الذين أكلوا من شجر الزقوم في جهنم ، فلا يجدون إلاّ حميمـاً يشربونه ، فيشربون منه ليطفوا ظمأهم ، لكنّه لايُطفىء الظّمأ ، فيشربون ويشربون كما تشرب الهيم ، وهي الإبل المصابة بداء الهيام ، وهو داء يجعلها لاتروى مهما شربت .

لَشَوْباً من حميم : الشَّوْبُ اسم عامّ لكل ما خُلط بغيره . والحميم : الماء الحار المتناهي في الحرارة .

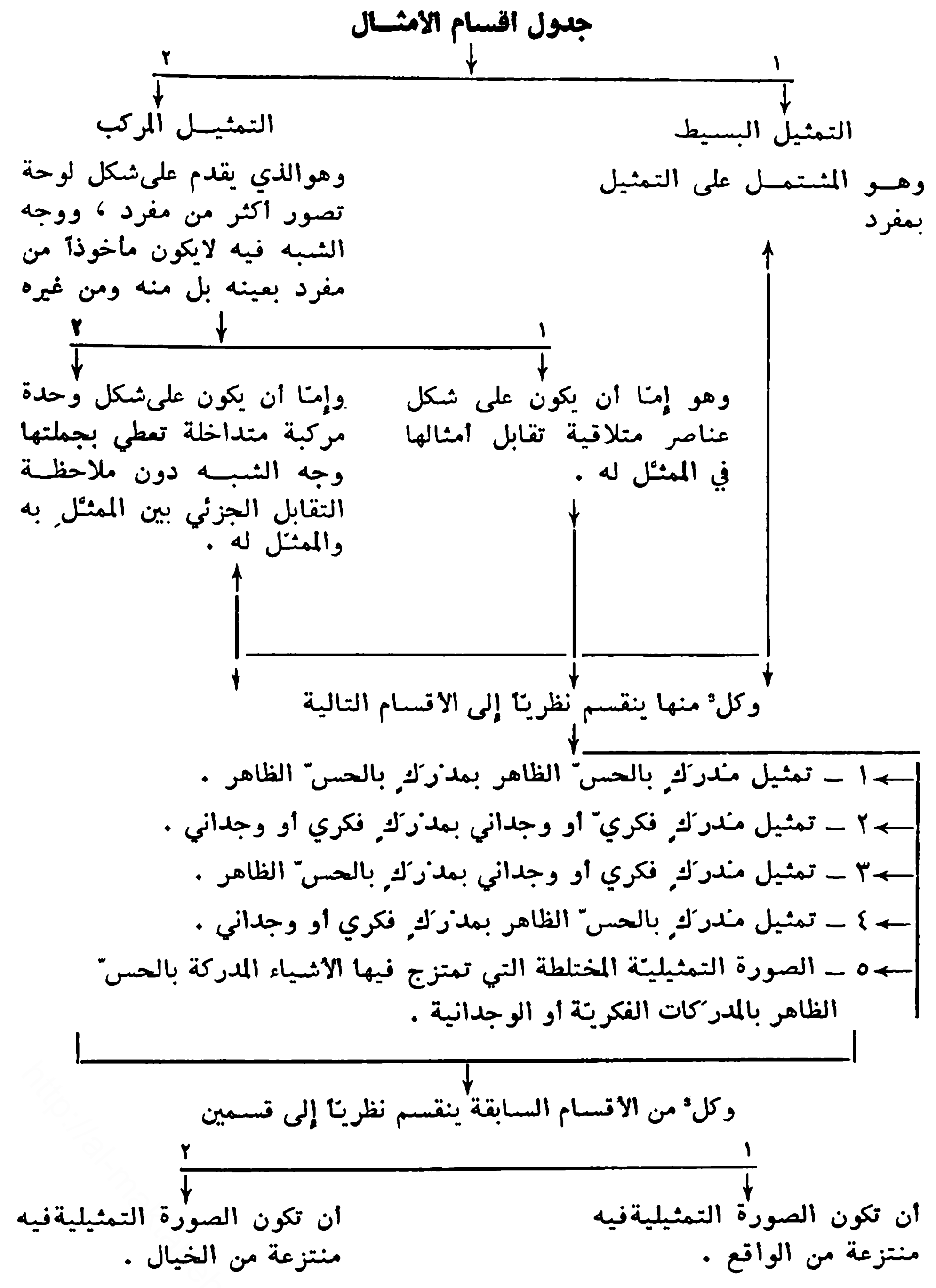
ويظهر أنّ المعذّبين بهذا العذاب يضطرون أن يرحلوا إلى أصل الجحيم حين يشتد بهم الجوع ، ليأكلوا من شجر الزّقوم ويشربوا عليه من الحميم ، فإذا ملؤوا بطونهم عادوا إلى أماكنهم في جهنم ، دلّ على هذا قول الله تعالى : « ثمّ إنّ مرجعهم لإلى الجحيم » •

أمّا كون شجرة الزّقوم فتنة للظالمين ، فقد ذكر المفسرون في تأويلها عدّة آراء ، وهي في جملتها لاتخلو من إشكالات • وبالرجوع إلى معاني كلمة (الفتنة) في اللّغة وجدت أنّ أصل هذه الكلمة مأخوذ من قول العربي : فتنتُ الفضة والذهب ، إذا أذابهما بالنار ليميز الرديء من الجيد • ويقول العرب : دينار مفتون إذا أُدخل النار لاكتشاف جَوْدته • والفَتْنُ : الاحراق• ومنه قول الله عزوجل: « يوم هم على النار يُفتنون » أي يحرقون بالنار • والفتنة : الإحراق بالنار • ويسمّى الصائغ الفتان ، لأنّه يستخدم النار فيما يصوغ من حُليّ (انظر لسان العرب) •

وباستطاعتنا في ضوء هذا المعنى أن نفهم دون أي إشكال قول الله تعالى في وصف شجرة الزّقوم : « إنا جعلناها فتنة للظالمين » •

فإذا كانت الفتنة عرضاً على النار وإحراقاً بها ، وإذا كانت شجرة الزّقوم طعاماً لاهباً يغلي في البطون كغلي الحميم ، كان من أوجه المعاني وأقربها أن نقول : إنّ شجرة الزّقوم الجهنّمية شجرة تعذيب للظالمين بإحراق داخلي في بطونهم ، إنهم يأكلون منها من شدة جوعهم ثم يكون ما أكلوه كنارٍ لاهبة تحرقهم من داخِل بطونهم •

أمّا تأويلات المفسّرين فمعظمها يدور حول معنى الافتتان بالشيء ، ومعنى الابتلاء والامتحان من معاني كلمة (الفتنة)، لذلك كانت تأويلات لاتخلو من إشكال• ومعلوم أنّ الدار الآخرة دار جزاء ، لا دار ابتلاء ، وأمّا امتحان المكذبين في الدنيا بذكر شجرة تنبت في النار يوم القيامة فيفتنهم هذا فيبالغون في كفرهم ، فتأويل ضعيف جدّاً ، وخروج بالنصّ عن أصل غرضه الرامي إلى بيان عذاب الظالمين يوم الدين ، والله أعلم •



فحاصل جملة الأقسام تصل نظرياً إلى ثلاثين قسماً هي ناتج ٣×٥×٢=٣٠ وقد يسقط منها صور يصعب التمثيل لها .


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الثالث

أغرَاض ضَرْب الأمثَال

أغراض ضرب الأمثال

- ١ -

الأصل في البيان أن يتضمن التعريف بما يراد التعريف به بأسلوب مباشر ، والخروج عن هذا الأصل لا يكون عند البلغاء والعقلاء إلاّ لغرض يقتضي ذلك .

ولمّا كانت الأمثال من الأساليب البيانية غير المباشرة للتعريف بما يراد التعريف به ، وكانت من أساليب الكلام البليغ التي يلجأ إليها كبار البلغاء ، ولمّا كانت تصاريف الربّ الحكيم منزهة عن العبث ــ كان اللجوء إلى ضرب الأمثال في القرآن لا يخلو عن غرض يدعو إليه .

ولدى تتبّع الأمثال القرآنية تكشفت لنا الأغراض التالية :

الغرض الأول : تقريب صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب عن طريق المثل .

الغرض الثاني : الإقناع بفكرة من الأفكار ، وهذا الإقناع قد يصل إلى مستوى إقامة الحجّة البرهانية ، وقد يقتصر على مستوى إقامة الحجّة الخطابية ، وقد يقتصر على لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة .

الغرض الثالث : الترغيب بالتزيين والتحسين، أو التنفير بكشف جوانب القبح. فالترغيب يكون بتزيين الممثّل له وإبراز جوانب حسنه ، عن طريق تمثيله بما هو محبوب للنفوس مرغوب لديها . والتنفير يكون بإبراز جوانب قبحه ، عن طريق تمثيله بما هو مكروه للنفوس ، أو تنفر النفوس منه .

الغرض الرابع : إثارة محور الطمع أو الرّغبة ، أو محور الخوف والحذر لدى المخاطب .

ففي إثارة محور الطمع والرغبة يتجه الانسان بمحرّض ذاتي إلى ما يُراد توجيهه له . وفي إثارة محور الخوف والحذر يبتعد الانسان بمحرّض ذاتي عمّا يُراد إبعاده عنه .

الغرض الخامس : المدح أو الذمّ ، والتعظيم أو التحقير .

الغرض السادس : شحذ ذهن المخاطب ، وتحريك طاقاته الفكرية ، أو استرضاء ذكائه ، لتوجيه عنايته ، حتى يتأمّل ويتفكر ويصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكّر .

والأمثال التي يدفع إليها هذا الغرض يخاطب بها الأذكياء ، وأهل التأمّل والنظر والبحث العلمي ، وكبراء القوم .

هذه الأغراض الستة هي الأغراض التي تكشفت لي من تتبع الأمثال القرآنية ، وقد يراد من ضرب المثل الواحد أكثر من غرض من هذه الأغراض في وقت واحد ، فبعض الشواهد القرآنية ـ التي سيأتي تفصيلها وشرحها إن شاء الله ـ تصلح شواهد لأغراض متعددة : فقد يكون المثل الواحد لغرض تقريب صورة الممثّل له إلى ذهن المخاطب به ، ولغرض الإقناع بالفكرة التي جاء المثل كدليل عليها ، ولغرض الترغيب ، وهكذا .

ـ ٢ ـ

شرح الغرض الأول

وهو تقريب صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب عن طريق المثل

فقد يكون لدى المخاطب نوع جهالة حول الممثّل له ، ويُراد رفعها عنه ، والتمثيل قد يكون وسيلة سهلة للتعليم ورفع الجهالة ، بل ربّما كان أحسن الوسائل عند تعذّر إحضار الممثّل له ، أو إحضار صورته بالفعل ، أمام المخاطب الذي يُراد رفع الجهالة عنه .

لكنّ الممثّل له قد لا يكون ذا صورة مادّية يمكن أن تدرك بالحسّ الظاهر ، بل أمراً فكريّاً ذهنيّاً ، أو أمراً وجدانياً ، وقد يكون ذا صورة مادّية يمكن أن تدرك بالحسّ الظاهر : ويراد من المثل في الحالة الأولى تقريب الصورة الذهنية أو الوجدانية ، وفي الحالة الثانية تقريب الصورة المادّية لذهن المخاطب .

امثلـة :

١ ـ يحدّثنا الله تبارك وتعالى عن الحور العين في الجنة ، وهنّ ذوات صور يمكن أن تدرك بالحسّ الظاهر ، ولكنّهنّ مجهولات لنا ، بعيدات الآن عن إدراكنا الحسي ، وعن تصوراتنا الخيالية ، فيقرب الله لنا طرفاً من صورة لون بشرتهنّ ونعومتها ، فيقول الله تعالى في سورة (الواقعة) :

[وحورٌ عين (٢٢) كامثال اللؤلؤ المكنون (٢٣)] .

فاللؤلؤ المكنون المحفوظ مثال لألوان بشرتِهنّ ونعومتها بصفة تقريبية ، مع الفارق العظيم بين الممثّل له والممثّل به .

ونظير هذا ما جاء في وصف الولدان المخلّدين ، وهم خَدَمُ المؤمنين في الجنة ، قال الله تعالى في سورة (الإنسان) :

[ويطوف عليهم ولدانٌ مخلدون إذا رايتهم حَسِبْتَهُم لؤلؤاً منثوراً (١٩)] .

فضرب الله مثلاً لألوان بشرتهم ونعومتها ، ولمشهد توزّعهم في الجنة للخدمة ، باللؤلؤ المنثور ، وهو مثل تقريبي ، والحقيقة أعظم من ذلك وأرفع .

٢ ـ وضرب الله مثلاً لفريقين من الناس :

الفريق الأول : الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله .

الفريق الثاني : الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربّهم ، أي تواضعوا وخشعوا إلى ربّهم وسكنت إليه قلوبهم ونفوسهم .

فمثل الفريق الأوّل كمثل الأعمى الذي لا يرى شيئاً ، والأصمّ الذي لا يسمع شيئاً ، فهو منطمس أدوات الإدراك الحسي ، وبانطماسها تحجب عنه المعرفة .

ومثل الفريق الثاني كمثل البصير شديد البصر حـادّه ، والسميع قويّ السمع مرهفه ، فهو دَرّاك لما يجري حوله ، قادر على اكتساب المعارف .

فالفريقان لا يستويان مثلاً ، إذْ حقيقتاهما متفاوتتان وهما على طرفي نقيض ، وهل يستوي العمى والبصر الحديد ؟ وهل يستوي الصمم والسمع المرهف الشديد؟

قال الله تعالى في سورة (هود) :

[الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عِوَجاً وهم بالآخرة هم كافرون (١٩) اولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب . ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون (٢٠) اولئك الذين خسروا انفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون (٢١) لاجرم انهم في الآخرة هم الأخسرون (٢٢) إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات واخبتوا إلى ربّهم اولئك اصحاب الجنّة هم فيها خالدون (٢٣) مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع . هل يستويان مثلاً افلا تذكّرون (٢٤)] .

فحالة الصدّ النفسي والقلبي والفكريّ عن الهداية الربّانية وعن الاستجابة لنداءاتها ، يمكن تمثيلها بحالة الأعمى الذي لا يرى شيئاً والأصمّ الذي لا يسمع شيئاً ، فهو لا يهتدي إلى طريقه .

وحالة الاستجابة النفسية والقلبية والفكريّة لآيات الهداية الرّبّانية ولنداءاتها البيانية ، يمكن تمثيلها بحالة البصير الذي يرى طريقه وكلّ ما حوله ، ويسمع أصوات الأدلاء والمرشدين ، وكل الأصوات التي تصل إلى سمعه .

والممثّل له من قبيل الفكريّات والوجدانيات ، والممثّل به من قبيل الحسيّات الظاهـرة .

ومن أغراض ضرب هذا المثل تقريب صورة الممثّل له إلى ذهن المخاطب مع غرض الترغيب والتنفير ، ومع غرض المدح والذمّ .

٣ ــ وضرب الله مثلاً لِحالة اللّهَثِ النفسي والظمأ لمطالب الحياة الدنيا ، لدى الذين كذّبوا بآيات الله وانسلخوا منها بعد أن آتاهم الله إيّاها ،

إخلاداً إلى الأرض وطلباً للطمأنينة فيها والاستمتاع بلذاتها ـ بحالة الكلب الذي يلهث باستمرار ، إنْ تحملْ عليه يلهث ، أو تتركه يلهث . هكذا حال طلاب الحياة الدنيا ، ينشدون الطمأنينة والسكينة والراحة والسعادة بالإخلاد إلى الأرض ، فإذا بهم يكدحون كدحاً دائماً لتحقيق مطالبهم فيها،فهم لا يزالون يلهثون وهم يكدحون في طلبها ، ثمّ لا يبلغون ما يريدون ، وتأتيهم مناياهم وهم على ذلك .

قال الله تعالى في سورة (الأعراف) :

[واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبَعَهُ الشيطانُ فكان من الغاوين (١٧٥) ولو شئنا لرفعناه بها . ولكنّه اخلد إلى الأرض واتّبع هواه . فمثله كمثل الكلب إن تحمِل عليه يلهثْ او تتركه يلهث . ذلـك مثَلُ القوم الذين كذّبوا بآياتنا . فاقْصُصِ القَصَصَ لعلهم يتفكرون (١٧٦) ساءَ مثلاً القومُ الذين كذّبوا بآياتنا وانفُسَهُم كانوا يظلمون (١٧٧)] .

فهذا المَثَلُ المقدّمُ في صورة تُدرَكُ بالحسّ ، قد جيء به لتقريب صورة الحالة النفسية للمكذّبين بآيات الله الذين أخلدوا إلى الأرض طلباً للذّاتها وتحقيق السعادة عن طريقها ، فإذا بهم لا يظفرون منها بطائل ، ويظلّ الظمأُ النفسيّ لديهم على حاله ، ويستمرّون في لَهَثٍ نفسيٍّ متواصل ، فحالتُهم النفسية هذه كحالة الكلبِ الحسّية إذ يلهثُ باستمرار ، سواء أجهدته أم لـم تجهده ، حملت عليه أم لم تحمل عليه .

٤ ـ وضرب الله مثلاً للصّراع بين الحقّ والباطل ، وللصراع بين أنصار الحق ودُعاته ، وجنودِ الباطل ودعاته ، ولنتيجة كلٍّ من الفريقين وعاقبته : بحالة الصّراع بين ماء السيل الغامر وأكوام الزبد المتناثر . وبحالة الصّراع بين المعـادن المنصهرة وزبدها الذي يتميّز عن جوهرها ، ثم يُطرح عنها فيذهب جفاء ، وبالنتيجة التي تتحصل بعد هذا الصراع ، وهي أنّ الزبد المخالط المصارع للجوهر النافع يذهب جُفاء ، وأمّا ما ينفع الناس فيمكُثُ في الأرض ، ويكون له الدّوام ومَجْد النفع . وكذلك الحق ، مهما صارعه الباطل ، فالباطل إلى اضمحلال وزوال ، والحقّ

إلى دوام وثبات واستقرار • وكذلك المحقون الثابتون المجاهدون لنصرة الحق، مهما صارعهم المبطلون، فالمبطلون إلى اضمحلال وزوال، والمحقون إلى انتصار ودوام وثبات واستقرار •

قال الله تعالى في سورة (الرعد) :

[انزل من السماء ماءً فسالت اودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً • ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبدٌ مثله • كذلك يضرب الله الحق والباطل • فاما الزبد فيذهب جفاءً ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض ، كذلك يضرب الله الامثال (١٧)] •

كذلك يضرب الله الحق والباطل : أي يضرب مثل الصراع بين الحق والباطل •

ويلاحظ في هذا النص مثلان متشابهان : أحدهما مشهد من المشاهد الكونية التي يشاهدها باستمرار الذين يعيشون في متقلبات الأحوال الجوية • وثانيهما مشهد آخر يلاحظه أرباب الصناعات المعدنية داخل مصانعهم • وفي كل من المثلين ظواهر تماثل حركة الصراع بين الحق والباطل، والمحقين والمبطلين، ونتائج هذا الصراع •

ولدى تحليل المثلين نرى أنهما مثلان حسيّان يُدركان بالحس الظاهر ، مُثِّلَ بهما صراعٌ معنوي لا يدرك بالحس الظاهر ، وهو الصراع بين الحق والباطل • وصراع حسّيٌّ يدرك بالحس الظاهر ، وهو الصراع بين المحقين والمبطلين •

أما الغرض من ضرب المثل هنا فربما يكون لتقريب تصور حقيقة الممثّل له ، وذلك بتمثيله بمثال مادّي يدرك بالحس الظاهر ، وقد يكون للاقناع بأن الغلبة في النتيجة للحق والمحقين ، وبأن البقاء والدوام للأصلح النافع ، أمّا الباطل والمبطلون والزبد الذي لا ينفع الناس فعرض زائل • وقد يكون للغرضين معاً ، ولغير ذلك من أغراض •

- ٣ -

شرح الغرض الثاني
وهو الإقناع بفكرة من الأفكار

والإقناع بفكرة من الأفكار قد يصل إلى مستوى الحجة البرهانية ، وقد يقتصر على مستوى الحجّة الخطابية ، وقد يقتصر على لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة •

والحجّة البرهانية هي الحجّة الملزمة التي تفيد اليقين • أمّا الحجّة الخطابية فهي حجّة إقناعية ظنيّة تفيد الظنّ الراجح ، ولفت النظر يكفي فيه إيراد المثل المشابه ولو لم يشتمل على أيّة حجّة •

امثلـة :

أولاً : فمن الشواهد القرآنية على الأمثال التي يقصد منها الاقناع بفكرة من الأفكار ، وهذا الاقناع يشتمل على حجّة برهانية ، ما يلي :

ضرب اللهُ المثل ببدء الخلق لإثبات قدرته على إعادة خلْق الأحياء بعد إماتتهم وفناء أجسادهم •

قال الله تعالى في سورة (الأنبياء) :

[كما بدانا اوّل خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنا فاعلين (١٠٤)] •

وقال تعالى في سورة (يس) :

[اولمْ يرَ الانسانُ انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين (٧٧) وضرب لنا مثلاً ونسيَ خلقه • قال : من يحيي العظام وهي رميم ؟ (٧٨) قل : يحييها الذي انشاها اوّل مرّة ، وهو بكلّ خلق عليم (٧٩) الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا انتم منه توقدون (٨٠) اوَ ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على ان يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاّق العليم (٨١) إنّما امره إذا اراد شيئاً ان يقول له : كن ، فيكون (٨٢)] •

وقال تعالى في سورة (الروم) :

[وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المَثَلُ الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (٢٧)] .

فضرب اللهُ في هذه النصوص مثلاً ببدْءِ الخلْق ، وضربَ مثلاً بخلقه للسماوات والأرض الذي هو أكبر من خلق الناس ؛ دليلاً على قدرته سبحانه وتعالى على إعادة خلق الناس بعد فناء أجسادهم .

وضربُ المثَلِ بكلٍّ من الأمرين قد تضمَّن حجّة برهانية على قدرة الخالق على إعادة الخلق بعد فنائه ، لأنّ من قدر على ابتداء الخلق لا بدّ أن يكون قادراً على إعادته ، لاستواء البدء والإعادة في الواقع بالنسبة إلى قدرة الخالق القادر ، الذي إذا أراد شيئاً فانما يقول له : كن ، فيكون ذلك الشيء . ولأن من قدر على خلق الشيء العظيم الكبير لا بدّ أن يكون قادراً على خلق ما هو أقل وأصغر منه .

وباستطاعتنا أن نصوغ البرهان الذي تضمنه مثَلُ بدْءِ الخلق ومثَلُ خلق السماوات والأرض على الوجه التالي :

إنّ مَثَل إعادة الخلق بعد فنائه كمثل بدْءِ خلقه بعد أن لمْ يكن شيئاً مذكوراً ، فالأمران مستويان ، بل الإعادة أهون ، فمن كان قادراً على بدْء الخلق فهو على إعادته قادر .

وإنّ خلقَ السماوات والأرض مَثَل أعلى لقدرة الله على الخلق، وهو أكبر من خلق الناس ، ومن كان قادراً على ما هو أكبر وأعظم من إعادة الخلق بعد فنائه ، فهو قادر على الإعادة لا محالة .

ونظير ما سبق قول الله تعالى في سورة (الاسراء) :

[نحنُ أعلَم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون : إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً (٤٧) انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون

سبيلاً(٤٨) وقالوا : ائِذا كنا عظاماً ورُفاتاً ائِنا لمبعوثون خلقاً جديداً(٤٩) قل : كونوا حجارة او حديداً(٥٠) او خلقاً مما يكبُر في صدوركم. فسيقولون:من يعيدنا؟. قل الذي فطركم اوّل مرّة . فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون : متى هو ؟ قل : عسى أن يكون قريباً (٥١) يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلاّ قليلاً (٥٢)] .

(نحن أعلم بما يستمعون به إذْ يستمعون إليك وإذْ هم نجوى) :

أي نحن أعلم بالحالة التي يستمعون بها إليك يامحمد ، وهي حالة الاستهزاء والاعراض والإنكار والتكذيب حين تدعوهم إلى التوحيد والايمان باليوم الآخر . ونحن أعلم بما يتناجون به سراً فيما بينهم عنك وعن دعوتك ، وذلك إذْ يستمعون إليك حينما تدعوهم وإذْ هم نجوى .

قال أهل التفسير : أمر رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين ، ففعل علي رضي الله عنه ذلك ، ودخل عليهم رسول الله ﷺ ، وقرأ عليهم من القرآن ودعاهم إلى التوحيد ، وقال لهم : قولوا : لا إله إلا الله حتى تطيعكم العرب وتدين لكم العجم ، فأبوا عليه ذلك ، وكانوا عند استماعهم من النبي ﷺ القرآن والدعوة إلى الله يقولون بينهم متناجين : إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً ، وما أشبه ذلك من القول [1] .

(انظر كيف ضربوا لك الأمثال) : أي انظر كيف وصفوك بأنّك مسحور ، أي مع أنك نبيٌّ مرسل من عند الله .

(فضلّوا فلا يستطيعون سبيلاً) : أي فلما رفضوا سبيل الحق ضلوا في متاهات الباطل ، ومن تنكب سبيل الحقّ الواضح فانه لا يستطيع أن يجد سبيلاً آخر يوصله إلى الهداية والسعادة . إنه ليس بعد الحقّ إلا الضلال وليس بعد سبيل الحقّ الوحيد إلاّ المتاهات والمهالك .

(ورفاتاً) : أي أجزاء متفتتة .

(فسيُنْغِضون إليك رؤوسهم) : أي فسيحركونها حركة إنكار واستهزاء .

---

(١) انظر تفسير الامام الرازي عند تفسير هذه الآية .

لقد ذكر الله عز وجل في هذا النص مقالة المشركين ، إذ جاؤوا بمثل من بقايا أجساد الموتى ، وهي عظامهم ورفاتهم ، وقالوا : أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئِنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟!

لقد أوردوا مقالتهم هذه على سبيل الاستفهام ، إلا أنّه استفهام المتعجب المنكر لخبر البعث . وتصوّروا أنّهم يقدّمون حجّة تدحض ما أخبرهم به الرسول ﷺ من العودة إلى الحياة للحساب والجزاء .

إنهم إذْ لم يشاهدوا شيئاً من العظام والرفات يعود إلى الحياة ، وقع في توهّمهم أنّ عدم عودتها في ظروف الحياة الدنيا ناشيء عن أن هذه العودة غير ممكنة ، وقاسوا قدرة الخالق على قدرتهم هم ، فأنكروا خبر البعث للحساب والجزاء .

فهذا مثلهم وهذا قياسهم ، وكلٌّ منهما مُنْتَزَعٌ التوهّم الفاسد .

أمّا البرهان الربّاني فقد قدّم مثلاً واقعياً من قدرة الله على خلقهم أنفسهم أوّل مرّة ، إذْ لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، وهذا المثل من الواقع يقدم برهاناً على قدرة الخالق على إعادتهم بعد فناء أجسادهم ، لاستواء عمليتي الخلق في البدء والإعادة . والفارق الزمني والاختلاف بين الماضي والحاضر والمستقبل لايغير من الحقائق شيئاً ، فالله تبارك وتعالى أزلي أبدي ، وصفاته أزلية أبدية ، لا يتغير منها شيء ، ولا يتناقص منها شيء ، وهذا ما أثبتته الحجج البرهانية التي هدت المؤمنين إلى وجود الله وكمال صفاته .

لقد قالوا متعجبين منكرين : أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئِنّا لمبعوثون خلْقاً جديداً ؟!

فقال الله لرسوله : « قل : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً ممّا يكبر في صدوركم » : أي افترضوا ماشئتم أن تفترضوا من مادّة أو صورة تتحول أجسادكم بعد الموت إليها ؛ كونوا حجارةً أو حديداً أو خلقاً آخر ممّا يكبر في صدوركم ، لا مجرد عظام ورفات وأجزاء متفتتة .

بعد هذا الافتراض سيقولون : من يعيدنا إلى الحياة إذا تحولّت أجسادنا هذا التحول الكبير إلى حجارة أو حديد ، أو عنصر آخر من عناصر الكون ؟ ولعلّ في هذا إشارة إلى التحوّلات التي تحدث للأجساد الحيوانية في الأحقاب الجيولوجية، كما يقولون عن متحجرات الأسماك وغيرها .

إن الجواب هو الجواب نفسه ، وإنّ البرهان هو البرهان نفسه ، « قل » يا محمد : « الذي فطركم أوّل مرّة » فمن خلق أوّل مرّة ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ، قادر على أن يعيد الخلق ، ولا يغير شيئاً من واقع الأمر أن تتحوّل الأجساد إلى أية مادّة أو أيّة صورة .

وإذ تنقطع اعتراضاتهم أمام هذا البرهان الذي لا ردّ له فسيسكتون ويحركون رؤوسهم حركة تعجب واستهزاء وإنكار ، وهذه طريقة من انقطعت حجته وظلّ مصرّاً على باطله .

ثم يلجؤون إلى السؤال عن زمن البعث ، فيقولون : متى هو ؟

فقال الله لرسوله : « قل : عسى أن يكون قريباً . يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنّون إن لبثتم إلا قليلاً » .

ثانياً : ومن الشواهد على الأمثال التي يقصد منها الاقناع بحجّة خطابية مايلي:

١ ــ يقول الله تعالى في سورة (الروم) :

[ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم ممّا ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون (٢٨)] .

لقد اتخذ المشركون شركاء لله من خلقه ، أي من عبيده ومما هو مملوك له ، واعتقدوا أنّ الله قد اتخذهم شركاء له ، ومنحهم قدرة التصرّف ، وفوّض إليهم أموراً من أمور خلقه ، حتى استقلّوا بكثير من الأمر ، وغدوا مستبدين منافسين ، أو وسطاء شافعين ، ومقربين إلى الله زلفى .

وفي الإقناع بعقيدة التوحيد الاسلامية ، وبأنه لا إله إلا الله ، وبأنه ليس لله ندّ ولا شريك ، جاء في القرآن أدلة برهانية كثيرة ، وجاء فيه أيضاً أدلة خطابية قد يكون

لها تأثير على بعض النفوس أكثر من تأثير الأدلة البرهانية ، لما فيها من تأثير على المشاعر النفسيّة ، أمّا البراهين فقد تكون أدلة عقلية بحتة لا تحرك بعض مشاعر النفوس ولا تهزّها .

ويبدو أنّ ما جاء في هذه الآية من الأدلة الخطابية في هذا الموضوع ، قد خاطب الله المشركين فيها فقال لهم :

« هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ؟ » .

أي يا أيها المشركون : هل ترضون لأنفسكم شركاء مما تملكون من أرقاء ، حتى تجعلوهم مالكين معكم لما تملكون مما رزقكم الله ؟. هل ترضون أن يكون عبيدُكم شركاء لكم فيما تملكون من أشياء حتى ينازعوكم فيها ؟. هل ترضَوْن أن تُفوّضوا لهم الأمر في سلطانكم حتى تشتدَّ قوّتُهم فتصل إلى درجة مساواتهم لكم ، وحتى يكونُوا قوة مخيفة لكم ، كما تخافون أمثال أنفسكم من الأحرار ذوي القوة والسلطان ؟

إذا كنتم لا ترضون شيئاً من ذلك لأنفسكم ، لمنافاته مرتبة كمالكم في تصوركم ، ولأنه يقلل من سلطانكم فيما هو لكم ، أفترضون مثله لبارئكم ؟. أفتعتقدون أن الله يرضى بذلك لنفسه مع أنكم تترفعون عنه ولا ترضونه لأنفسكم ؟ لو قستم الله على أنفسكم في أدنى الحدود لرفضتم أن تجعلوا لله شريكاً ، فتعالى الله عن ذلك علُوّاً كبيراً .

فالذي يبدو من هذا المثل أنه قد جيء به لإقامة حجة قياسية تتضمن دليلاً خطابياً ، ولا يبعد ــ إذا تعمقنا في تحليل الدليل ــ أن يكون دليلاً برهانياً ، والله أعلم .

٢ ــ ويقول الله تعالى في سورة (النحل) :

[والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فُضّلوا برادّي رزقهم على ما ملكت ايمانهم فهم فيه سواء افبنعمة الله يجحدون ؟ (٧١) والله جعل لكم من انفسكم ازواجاً وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيّبات افبالباطل يؤمنون

وبنعمة اللهِ هم يكفرون ؟! (٧٢) ويعبدون من دون الله مالايملكُ لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون (٧٣) فلا تضربوا لله الأمثال . إنّ الله يعلم وانتم لا تعلمون (٧٤) ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منّا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهراً . هل يستوون ؟. الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون (٧٥) وضرب الله مثلاً رجلين احدهما أبكم لا يقدر على شيءٍ وهو كَلٌّ على مولاه اينما يوجّههُ لا يأتِ بخيرٍ . هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم (٧٦)] .

(وجعل لكم من أزواجكم بنين وحَفَدَة) :

الحفدةُ في اللغة : هم الأعوان والخدم ، وهو جمع مفرده الحافد . وحفدةُ الرجل : بناته ، وأولاد أولاده ، وأصهاره . وأصل مادة الكلمة يدل على معنى الخدمة بخفة وسرعة . يقال لغةً : حفد الرجل يحفد حفداً إذا خدم بسرعة وخفة .

ويترجح عندي من أقوال المفسرين تفسير الحفدة ببنات الرجل ، فهو الذي يتلاءم مع البنين ، وبنات الرجل هن اللواتي يسرعن في خدمته في بيته ، وهن اللواتي جعلهن الله للرجال من أزواجهم .

(فلا تضربوا لله الأمثال) : أي لا تشبهوا الله بخلقه ، ولا تجعلوا لله مِثلاً ولا شبيهاً .

في هذا النص من سورة النحل ثلاثة أمثال للاقناع بحجج خطابية في قضية التوحيد ، وأنه لا إله إلا الله ، وأنه لا شريك له في ربوبيته ولا في ألوهيته .

المثل الأول : فيه محاكمة للمشركين بأنهم هم أنفسهم مثل صالح يمكن أن يستفيدوا منه للاقلاع عن عقيدة الشرك بالله .

وذلك أنهم إذا كانوا هم أنفسهم لا يقبلون أن يملكوا ويسلطوا عبيدهم وأرقاءهم على أموالهم أو على شطر منها ، حتى يكونوا هم وإياهم سواء في الملكية والتسلط والقدرة على التصرف ، وحتى يكونوا شركاء لهم وهم أرقاؤهم ، فكيف وقع في تصورهم أن الله قد فعل مثل ذلك مع بعض من خلق ، فجعلهم شركاء له ، مع أنهم لا يملكون حجة منزلة من عند الله على اعتقادهم هذا .

وهذا ما تضمنه قول الله تعالى في النص : « والله فضل بعضكم على بعضٍ في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء » .

أي فاذا كانوا لا يقبلون هذا لأنفسهم فكيف ينسبون إلى الله أنه جعل قسماً من خصائص الألوهية لشركائهم ؟

إن خلقهم ورزقهم وكل خير يصل إليهم هو من نعمة الله عليهم ، وشركاؤهم الذين يعبدونهم من دون الله لا تملك لهم رزقاً من السماوات والأرض ولا تملك لهم شيئاً ، ولا تستطيع لو أرادت .

« أفبنعمة الله يجحدون ؟ » .

« أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ؟! ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون ؟! » .

المثل الثاني : أنهم في واقعهم الإنساني يرفضون التسوية بين عبدٍ مملوك لا يقدر على شيء ، فلا هو يعطي ولا هو يمنع ، وبين حُرٍّ مرزوق ذي جودٍ وكرم ينفق من ماله سراً وجهراً .

فكيف يرفضون مثل هذه التسوية في واقعهم الإنساني ، ثم يعتقدون ما هو أقبح منها ، إذ يسوون بين الله وخلقه ، فيجعلون لله من عباده أو من جوامد خلقه كالشجر والحجر شركاء ؟!

وهذا ما تضمنه قول الله تعالى في النص : « ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيءٍ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً . هل يستوون ؟ الحمد لله . بل أكثرهم لا يعلمون » .

المثل الثالث : أنهم في واقعهم الإنساني أيضاً يرفضون التسوية بين إنسان أبكم لا يقدر على شيءٍ وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، وبين عاقل حصيف فصيح اللسان يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم .

فكيف يرفضون مثل هذه التسوية في واقعهم الإنساني ثم يعتقدون ما هو أقبح منها ، إذ يسوون بين الله العليم الحكيم القدير الذي بيده مقاليد السماوات

والأرض وبين بعض خلقه الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً ، فيجعلون لله من خلقه شركاء في ألوهيته أو في ربوبيته ؟!

هذه الأمثال اكتفت بحجتها الخطابية في عرضها الاقناعي ، لاستثارة المشاعر النفسية لدى المخاطبين ، مع إمكان تقديم الحجة بطريقة برهانية ، كما جاء في نصوص قرآنية كثيرة أُخرى .

وفي الطريقة البرهانية نقول : إن المشركين يسوون بين الله الخالق وبين بعض خلقه ، إذ يعتقدون أنهم شركاء له ، مع أن هؤلاء الشركاء فقراء لله لا يقدرون على شيء ، والله هو الغني ذو الجود والمن ، يعطي سراً وجهراً بغير حساب ، وهؤلاء الشركاء لا يرجى منهم نفع ولا يُخشى منهم ضر ، ولا تستفاد منهم هداية ، ولله تعالى لديه الخير كله ، وهو الآمر بالعدل ، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم .

فالتسوية بين الله وأي خلقٍ من خلقه مرفوضة بالبداهة العقلية ، ولما كانت الربوبية والألوهية تتطلبان صفات خاصة لا توجد إلا في الرب الخالق وحده ، كان ادعاء الألوهية أو الربوبية لغير الله تعالى أمراً باطلاً قائماً على تسوية مرفوضة بالبداهة العقلية بين الله سبحانه وتعالى وبين الشركاء .

٣ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الزمر) :

[ضرب الله مثلاً : رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلَماً لرجل . هل يستويان مثلاً ؟ . الحمد لله . بل أكثرهم لا يعلمون (٢٩)] .

« متشاكسون » متخالفون متشددون عسرو الأخلاق .

« سلماً لرجل » أي خالصاً له لا يشاركه في ملكيته رجل آخر يشاكسه ويختلف معه ، فيكون المملوك بذلك معذباً تحت سلطان المتشاكسين المالكين له .

في هذه الآية مثل تضمن إقناعاً بحجةٍ خطابية بغية تخلي المشركين عن عقيدة الشرك بالله عز وجل .

لقد اختار المشركون لأنفسهم أن يتخذوا آلهة متعددة يعبدونها من دون الله ، دون أن يكونوا ملزمين عقلاً ولا واقعاً بعبادتها ، بل العقل والواقع يلزمانهم بالتوحيد ، وأن يعبدوا الله وحده لا يشركون بعبادته أحداً .

لقد اتخذ المشركون الآلهة المتعددة من دون الله استناداً إلى أوهام لا أساس لها ، وباختيارهم لاتخاذ الآلهة المتعددة تركوا ما هو أكرم لهم وأشرف وأعز لنفوسهم، ألا وهو عبادة الله وحده ، والخضوع لله وحده .

ولما كان الأمر يرجع إلى اختيارهم وإيثارهم الشرك على التوحيد ، فمثلهم في هذا كمثل عبد رقيق ، يفضل باختياره الحر أن يكون عبداً مملوكاً لعدد من الرجال هم فيه شركاء ، وكل واحدٍ منهم له عليه سلطان ، وله منه مطالب ، وهم فيما بينهم متشاكسون متخالفون ، ويؤثر هذا الحال المتعب المذل له على أن يكون عبداً مملوكاً لرجل واحد فقط لا ينازعه فيه منازع .

إذا كان لا مناص له من أن يكون عبداً مملوكاً ، فلأن يكون مملوكاً لرجل واحد فقط أكرم له وأشرف من أن يكون مملوكاً له ولغيره من الشركاء المتشاكسين.

فالحجة في هذا المثل تثبت أن انفراد المالك الذي تجب طاعته أفضل وأكرم للمملوك من تعدد المالكين ، فالأمران ليسا بمتساويين .

« هل يستويان مثلاً ؟! »

ومن الواضح في هذه الحجة أنها لا تقدم برهاناً على نفي الشركاء ، لكنها تقدم إقناعاً خطابياً للمشركين بأن التوحيد أكرم لنفوسهم وأشرف وأعز . فهي تثير في نفوسهم عنصر الكرامة ، ليستبصروا بالحقيقة وينظروا إلى الأدلة البرهانية التي تثبت لهم أنه لا إله إلا الله .

وإذا كان التوحيد أكرم لهم فما بالهم يتعصبون لشركهم ؟!

ونؤكد أن هذا الاقناع القائم على تحريض عنصر الكرامة في نفوس المشركين مسبوق بالأدلة العقلية البرهانية ، التي تثبت أن لا إله إلا الله ، وتثبت أن الرب الخالق واحدٌ لا شريك له ، وأنه هو وحده الذي يستحق أن يعبده عباده ، وأنه هو وحده الذي يجب أن يعبدوه .

— ٤ —

شرح الغرض الثالث

وهو الترغيب بالتزيين والتحسين ، او التنفير بكشف جوانب القبح

أما الترغيب فيكون بتزيين الممثل له وإبراز جوانب حسنه عن طريق تمثيله بما هو محبوب للنفوس مرغوب لديها•وأما التنفير فيكون بابراز جوانب قبحه عن طريق تمثيله بما هو مكروه للنفوس ، أو تنفر النفوس منه •

ومن الشواهد القرآنية على الأمثال التي يقصد منها الترغيب بأمرٍ من الأمور، أو التنفير من أمرٍ من الأمور ما يلي :

١ ـ ضرب الله مثلاً للكلمة الطيبة ، ومثلاً للكلمة الخبيثة • فالمثل الأول يشد الرغبة إلى العناية بالكلمة الطيبة ، والاهتمام بتقديمها وبذلها في مواطن نفعها • والمثل الثاني ينفر من الكلمة الخبيثة ويحرض على كفها وإمساكها ، مهما وجدت الدواعي النفسية لإطلاقها •

قال الله تعالى في سورة (إبراهيم) :

[الم تر كيف ضرب الله مثلاً : كلمةً طيبةً كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء (٢٤) تؤتي أكلها كل حين بإذن ربهـا • ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (٢٥) ومثل كلمةٍ خبيثةٍ كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار (٢٦)] •

الكلمة الطيبة هي مثل كلمة التوحيد ، وكلمة الدعوة إلى الله ، وكلمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والكلمة الحلوة التي يسرّ بها المسلمُ أخاه المسلم في طاعة الله ، والكلمة التعليمية التي يقدمها المعلم المسلم الناصح لمن يستمع اليـه ، والكلمة التربوية التي يبذلها المسلم المربي الناصح لمن يشرف على تربيته ، والكلمة الرشيدة التي ينصح بها المسلم أخاه ، هذه الكلمة ضرب الله مثلاً لهـا بالشجرة الطيبة المزروعة في الأرض الطيبة ، ذات الجذور والأصول الثابتة المتغلغلة في عمق الأرض ، وذات الفروع الممتدة في السماء ، وهي شجرة مثمرة لا ينقطع ثمرها النافع في أي فصل من فصول العام ، فهي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها •

وصورة هذا المثل منتزعة من الواقع المشاهد للناس ، مع إضافة شيءٍ من الخيال بالنسبة إليهم ، وهي بالنسبة إلى ما خلق الله منتزعة من الواقع ، فأشجار الجنة كذلك .

ويستفاد من هذا المثل أن الكلمة الطيبة ثابتة الأصل ، نامية باستمرار ، مثمرة في كل حين .

إن كل كلمة طيبة يقولها مؤمن مسلم يبتغي رضوان الله تعالى ويرجو ثوابه ، تنمو عند الله ، أما أصلها الثابت فايمان صاحبها وإخلاصه لله في بذلها ، وأما فروعها الممتدة في السماء فبلوغها مستوى القبول عند الله ، وأما ثمرها فما تقدمه من أجرٍ بفضل الله لباذلها وزارعها في أرض التقوى والبر والإحسان . فاذا كانت كلمة تعليم وهداية وإرشاد ونصحٍ لعباد الله ، حتى يهتدوا إلى صراط الله المستقيم ، وكانت مقرونة بالإخلاص لله ، بارك الله بها ، فامتدت وتسلسلت الهداية بها ، فما انتفع بها منتفع ، ولا اهتدى بها مهتد ، إلا كان لباذلها الأول مثل أجور من اهتدى بها وتأثر بها فعمل صالحاً ، وهذا من ثمرها الذي تؤتيه كل حين بإذن ربها . والكلمة الطيبة تدل على عقل باذلها وحصافته .

وبهذا المثل الترغيبي الرائع تشتد القلوب المؤمنة للاهتمام ببذل الكلمة الطيبة.

« ألم تر كيف ضرب الله مثلاً : كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبة أصلها ثابت وفرعُها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها،ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون» .

وفي مقابل الكلمة الطيبة تأتي الكلمة الخبيثة ، وفي مقابل مثل الكلمة الطيبة يأتي مثلُ الكلمة الخبيثة .

إن مثل الكلمة الخبيثة شجرة خبيثة ضارة مؤذية ، قد اجتثت من فوق الأرض، أي قطعت واستؤصلت كل صلةٍ جذرية لها بالأرض ، فليس لها قرار تثبتُ فيه وتستمد منه ، حتى يكون لها نماءٌ أو نفع .

وهذا المثل الذي ينفر العقلاء من الكلمة الخبيثة يرسم صورة لشجرة خبيثة قد لا يكون لأمثالها وجود مشهود للناس ، ولا ضير أن لا يكون لمثل هذه الشجرة

وجود مشهود ، إذ يكفي أن يصور المثل للأذهان المعالم المميزة لهذه الشجرة الخبيثة الضـــارة •

فهي أولاً خبيثة ، أي ضارة ليست بنافعة مكروهة المنظر والرائحة ، تؤذي من يقرب منها أو تضره •

وهي أيضاً ليس لها فروع نامية في السماء حتى تنفع في ظل أو حطب •وليس لها أُكل يستفيد منه إنسان أو حيوان •

وكذلك الكلمة الخبيثة هي مؤذية أو ضارة ، وليس لها جذور من الخير حتى تمدها بقوى النماء ، فهي مقطوعة الصلة بالعوامل القادرة على إمدادها بما ينميها •

إن الكلمة الخبيثة تقذف إلى أسماع الناس من فم قائلها ، فتؤذيهم ، أو تضر من تضر منهم ، أو تفسد من تفسد منهــم ويشمئز العقلاء منها كما يشمئزون من القمامات والأقذار التي تطرح في طرُقاتهم ، وتكون بمثابة للعثرات من الحجارة وأشجار الشوك التي تعرقل سبيل المارة •

والكلمة الخبيثة مثل كلمة الكفر ، وكلمة الإثم والظلم والعدوان ، كقذف الناس في أعراضهم ، وسبهم وشتمهم بغير حق • ومثل كلمة الغيبة والنميمة ، وكلمة الكذب المحرم ، وكلمة الدعوة إلى الكفر والفجور والفسوق والعصيان ، وكلمة الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، والكلمة التي يغش ويخدع بها من لا أمانة له ، والكلمة المضلة التي يفسد بهـا رجل التربيــة والتعليم من يشرف على تربيتهــم وتعليمهم ، والكلمة الباطلة التي يقدمها المعلم الغاش لتلاميذه ، فيأخذونها عنه على أنها حق وعلم صحيح ، وكلمات الفحش والبذاءة ، إلى غير ذلك من كلمات ، وكل أولئك خبيثات غير طيبات •

« ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتُثت من فوق الأرض مالها من قرار » •

إن الكلمة الخبيثة تدل على هبوط مستوى قائلها ، وقلة عقله ، أو نذالتــه وخبث نفسه •

٢ ــ وضرب الله مثلاً للذين اتخذوا من دون الله أولياء يستنصرون بهم ، ويعتمدون عليهم ، ويرجون عندهم نفعاً يجلبونه لهم ، أو ضـراً يدفعونهم عنهم أو يقذفون به على أعدائهم ، بالعنكبوت التي اتخذت لنفسها بيتاً تأوي إليـه يحميها ويقيها ، وبيتها أوهى وأضعف بيوت الحيوان ، وهو أشبه بنسيج الأوهام •

فقال الله تعالى في سورة (العنكبوت) :

[مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتـاً • وإن اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون (٤١) إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيـز الحكيم (٤٢) وتلك الأمثـال نضربهـا للناس وما يعقلهـا إلا العالمون (٤٣)] •

لا يصعب على متدبر هذا المثل أن يلاحظ ما فيه من تصوير ينفر أهل البصر من أن يتخذوا من دون الله أولياء ، إذ يصور اعتمادهم على أوليائهم باعتماد العناكب على بيوتها التي تتخذها مما تغزل من خيوطها التي تفرزها من غدد في صدورها •

حين نقول لمن يتخذ من دون الله أوليـاء : إنَّ اعتمادك على أوليائك اعتماد ضائع لا ينفعك شيئاً ، إنما نقدم له الفكرة مجردة تجريداً ذهنياً • لكننا إذا وضعنا له هذه الفكرة نفسها في صورة يشاهد شبيهها في الحس ، وهذا الشبيه لا يحتاج بيان الفكرة فيه إلى شرح أو إقامة حجج ، كان ذلك أدعى إلى وضوح الرؤية ، مع ما في ذلك من إرضاء لذكائه وحسه الأدبي الذي يذلل في نفسه عقبـة الإعراض والرفض ، ويجعله يقبل إلى محدثه للاستمتاع بمتعة الأدب الرفيع •

ولما كان أهل البصيرة ينفرون من اتخاذ بيوت واهية واهنة لأنفسهم ، أمثال بيوت العناكب ، كان ضرب المثل للعمل الضائع والاعتماد الخائب ببيت العنكبوت بياناً حكيماً لغرض التنفير من اتخاذ أولياء من دون الله •

إلا أنه لما كان التمثيل ببيت العنكبوت قد يسمح بتصور منفعةٍ ما مهما كانت ضئيلة وحقيرة ، أتبع الله هذا المثل بقوله :

« إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء » •

أي ليس الذين يدعونهم من شركائهم من دون الله شيئاً أي شيء ، إنهم لا يدعون إلا أوهاماً ، ولا يعتمدون إلا على أوهام ، إن هي إلا أسماء سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان ، وليس لمسميات هذه الأسماء نفع ولا ضر مطلقاً .

« وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » : أي وما يفهم دلالاتها العميقة ويمسك بما ترشد إليه إلا العالمون ، وهم المتصفون بصفات العالم الباحث عن الحقيقة .

وبنى الله على المثل كأنه عين الممثل له فقال تعالى : « لو كانوا يعلمون » عقب ضربه المثل ببيت العنكبوت .

٣ ـ وضرب الله مثلاً تشبيهياً لناقضي عهودهم ، فجعل مثلهم كمثل المرأة الحمقاء التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، قال الله تعالى في سورة (النحل) :

[وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً . إن الله يعلم ما تفعلون (٩١) ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً . تتخذون أيمانكم دَخَلاً بينكم ان تكون امة هي اربى من امة . إنما يبلوكمُ الله به . وليبيننَّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون (٩٢)] .

فالله تبارك وتعالى يضرب في هذا النص مثلاً للذين ينقضون عهودهم ومواثيقهم ، أو ينقضون أيمانهم التي يوثقون بها عهودهم ، بالمرأة الحمقاء التي من شأنها أن تغزل غزلها ، حتى إذا أحكمته وأبرمته إبراماً مناسباً ، عادت فنقضته وجعلته أنكاثاً .

الأنكاث : جمع مفرده (نِكْث) والنِّكْث هو ما يؤخذ من الخيوط المُبْرَمة [1] من نسيج قد بلي أو غير ذلك فينقض برمه ، ويُعاد إلى مثل ما كان عليه سابقاً صوفاً أو شعراً أو قطناً ، ثم يخلط بالصوف أو الشعر أو القطن الجديد ، ويضرب بالمطارق إعداداً له حتى يكون صالحاً للغزل .

---

(١) برم الخيط او الحبل وابرمه فتل طاقين او اكثر منه وجعل من ذلك خيطاً او حبلاً أغلظ واقوى .

إنّ هذا المثل يقدّم صورة لعمل امرأة حمقاء ، تبذل جهداً لتغزل غزلها ، ثمّ تبذل جهداً آخر لتنقض ما غزلت ، وتعيد صوفها أو ما غزلت من شعر إلى مثل حالته الأولى ، فتضيع جهدين ، وتبدّد زمنين من عمرها ، دون أن تستفيد من جهدها أو زمنها شيئاً .

وكذلك حال الذين ينقضون عهودهم ومواثيقهم التي أكّدوها بأيمانهم ، إنهم يرتكبون حماقة شبيهة بحماقة المرأة التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً .

ألم يعطوا كلمة العهد ؟. ألم يؤكّدوا مواثيقهم بالأيمان ؟. ألم يجعلوا الله بهذه الأيمان كفيلاً عليهم إذْ قبل منهم من أعطوهم عهودهم أيمانهم ، واعتبروا هذه الأيمان بمثابة كفالة من الله لهم ؟

(وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) : للمفسرين في المراد من عهد الله هنا وجوه من الرأي ، وأرى أنه يشمل كلّ عهد يقدّمه المؤمن في أمرٍ لا معصية لله فيه . وحين يوثّق المؤمن عهده بالقَسَم بالله فانّ عهده يكون من قبيل عَهْدِ الله ، أي عهده مع الله ، بشرط أن لا يكون في هذا العهد معصية لله عزّ وجل ، ولو كان هذا العهد مع غير المسلمين .

ويدخل في عموم العهد عهْد الإيمان ، وعهْد البيعة على للطاعة لإمام المسلمين ، وعهد الجهاد في سبيل الله ، وكل عهد يلتزمه الانسان باختياره .

قال ابن عباس : والوعدُ من العهد .

وسياق النصّ يفيد أن العهد يشمل كلّ ما يكون بين أمّة وأمّةٍ من عهود سياسية أو عسكرية أو غير ذلك .

(تتخذون أيمانكم دَخَلاً بينكم) : الدّخَلُ والدّغَلُ : الغشّ والخيانة ، وكل ما دخله عيبٌ فهو مدخول ، وفيه دَخَل . والدّخَلُ هو ما أُدْخِلَ في الشيءِ على فساد .

فقول الله تعالى « تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم » : أي أتحلفون الأيمان لتخدعوا بها الناس وتغشّوهم بها ، حتى يصدّقوكم في عهودكم ووعودكم ، ثم تنقضونها بغير حقّ ؟! إن هذا لأمرٌ كبير شنيع .

(أنْ تكونَ أُمَّةٌ هي أربى من أمَّة) : أربى : أي أكثر ، والمعنى: أتتخذون أيمانكم الكاذبة وسيلةً خديعة لتكون أمتكم أكثر وأقوى من أمة عدوكم ؟!

وواضح في هذا الاستفهام أنه من قبيل الاستفهام الانكاري • أي لا تتخذوا العهود والأيمان الموثقة لها وسيلة غشٍ وخديعة ، تخدعون بها من تعاهدونهم ، ثم تنقضون هذه العهود والأيمان بغير حق ، وتبررون اتخاذ هذه الوسيلة المحرمة بأنكم تريدون غاية نبيلة ، وهي أن تكون أمة الإيمان والاسلام أربى من أمة الكفر والعصيان •

إنّ الله يحرم هذه الوسيلة وأمثالها ، ولو كان الغرض منها تقوية أمة الاســلام •

إنكم أيها المؤمنون المسلمون في موضع الامتحان « إنما يَبْلُوكم الله به » والامتحان يتطلب منكم التزام حدود الله ، ولو مع أعداء الله ، ويكلفكم أن تكونوا دعاةً هداة صابرين ، ملتزمين أوامر الله ونواهيه ، ممثلين في أعمالكم شريعة الله لعباده •

إنكم أيها المؤمنون المسلمون أمة تبليغ وإقامة لحكم الله في الأرض ولشريعته في الناس ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً ، ضمن حدود أوامر الله ونواهيه ، فاذا اتخذتم أيمانكم بالله وسيلة لمخادعة أعدائكم خالفتم أسس رسالتكم للناس ، وأعطيتم مثلاً سيئاً عنها بتصرفاتكم ، وكان ذلك منكم مزلة قدم ، وصدَّ عملكم هذا الناس عن الدخول في الاسلام ، فتأتي النتيجة على عكس ما تريدون ، إذْ تمسي أمة الكفر أربى من أمة الإيمان •

إنكم أيها المؤمنون المسلمون لم تكلفوا أن تحولوا الناس إلى الايمان حتى تتخذوا لذلك أية وسيلة ، كالاكراه ، والمخادعة بالعهود والوعود والأيمان ، إنّ الله لو شاء ذلك لتولاه بنفسه ، فجعل الناس كلهم أمة مؤمنة واحدة ، فسلب الناس إراداتهم الحرة وجعلهم مجبورين غير مخيرين ، وإذا جعلهم مجبورين لم يجبرهم إلا على الايمان الحق ، والاسلام الكامل له جل وعلا •

ولذلك قال الله تعالى عقب الآية التي جاء فيها مثل المرأة الحمقاء :

[ولو شاء الله لجعلكم امّة واحدة . ولكن يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء . ولتسألنّ عمّا كنتم تعملون (٩٣) ولا تتخذوا ايمانكم دخلاً بينكم فتزلّ قدم بعد ثبوتها،وتذوقوا السوء بما صَدَدتم عن سبيل الله.ولكم عذابٌ عظيم (٩٤) ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً . إنّما عند الله هو خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون (٩٥) ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ولنجزينّ الذين صبروا اجرهم باحسنِ ما كانوا يعملون (٩٦)] .

فنقض العهود مزلة قدم عن صراط الله ، وعقوبتها المعجلة أن يذوق ناقضو عهودهم السوءَ في الدنيا ، بسبب عملهم الذي أعطى صورة سيّئة صَدّت عن سبيل الله ، ثمّ تكون العقوبة في الآخرة عذاباً عظيماً .

إنّ نقض العهود أمرٌ خطير وإثم عظيم في الاسلام ، ولذلك كان حماقة تشبه حماقة التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، وهذه الحماقة مما ينفر العقلاء منه .

— ٥ —

شرح الفرض الرابع

وهو إثارة محور الطمع والرغبة ، أو محور الخوف والحذر لدى المخاطب

ففي إثارة محور الطمع يتجه الانسان بمحرضٍ ذاتي إلى مايراد توجيهه له.وفي إثارة محور الخوف والحذر يبتعد الانسان بمحرّض ذاتيّ عمّا يراد إبعاده عنه .

وهذا من الأغراض التربوية المهمّة ، ونلاحظه بكثرة في البيانات القرآنية .

امثلة :

١ — يقول الله تعالى في سورة (البقرة) :

[مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبّة . والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم (٢٦١)] .

في هذا المثل إثارة لمحور الطمع في الانسان ، ففي تمثيل بذلِ المال في سبيل الله ببذر الحبّ في الأرض الزراعية المعطاء الطيبة ، إثارة قوية لمطامع الانسان .

إنّ الناس يعرفون قيمة العطاء الزراعي إذا أقبل ، ويشهدون أمثلته الكثيرة في الواقع ، فاذا كان هذا الاقبال في العطاء الزراعي قد يصل بعمليّة حسابية بسيطة إلى سبعمئة ضعف ، لأن الحبّة الواحدة تنبت سبع سنابل ، والسنبلة الواحدة تحمل مئة حبّة ، كانت إثارته لطمع الانسان المزارع والتاجر بطبعه أعظم وأكثر ، فأي إنسان لا يحبّ الربح ؟ • وأيّ إنسان لا يطمع بفيوض الثروة ؟

فالغرض من التمثيل ، في هذا النصّ مع بيان حقيقة مضاعفة ثواب المنفقين في سبيل الله إلى أضعاف كثيرة جدّاً ، إثارة محور الطمع بفضل الله في نفس المخاطبين ، ليكون هذا الطمع محرّضاً ذاتياً في الأنفس على بذل الأموال في سبيل الله •

٢ ـ ويقول الله تعالى أيضاً في سورة (البقرة) :

[الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منّاً ولا أذى لهم اجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢٦٢) قولٌ معروف ومغفرةٌ خير من صدقة يتبعها اذى والله غنيّ حليم (٢٦٣) يا ايّها الذين آمنوا لا تبطلوا صدَقاتكم بالمنّ والأذى • كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوانٍ عليه ترابٌ فاصابه وابلٌ فتركه صلداً لا يقدرون على شيءٍ ممّا كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين (٢٦٤)] •

في هذا النصّ إثارة لمحور الطمع للتحريض على البذل في سبيل الله ، وإثارة لمحور الخوف من الخسارة للتحريض على البعد عن إبطال أثر الصدقة برذيلة المنّ والأذى ، وإثارة لمحوري الطمع والخوف معاً للتحريض على الإخلاص لله وابتغاء مرضاته في بذل الصدقات ، وللتحذير من مراءاة الناس وابتغاء الثناء والثواب منهم في بذل الصدقات •

لقد شبّه الله فيه الذين يُبطلون صدقاتهم بالمنّ والأذى بالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، ثم ضرب مثلاً لهذا المرائي فكان في الحقيقة مثلاً له ولمن يبطلون صدقاتهم بالمنّ والأذى نظراً إلى تشبيه هؤلاء به •

أمّا المثل فقد صور المنفق الذي ينفق ماله رئاء الناس ، بزارعٍ على صخرةٍ صمّاء ملساء ، عليها طبقة رقيقة جدّاً من التراب ، على قدر رياء المرائي « صفوانٌ عليه تراب » •

ثم ينزل غيث السماء الغزير لإمداد الزرع وإنباته ، وهو مَثَلٌ رحمة الله وجوده الشامل للباذلين •

ولكن الزارع على صفوانٍ لا يملك أرضاً سمينة تمتص الغيث ، وتمد منه الحب المزروع • وكذلك قلب المرائي ونفسه ، ليس فيهما قابلية لامتصاص رحمة الله وثوابه •

والنتيجة التي تحصل أن يجرف الغيث الكثير الغلالة الترابية وما زرع فيها ، ويظهر الصفوان على حقيقته حجراً صلداً أملس ،وتظهر في المقابل نفس المرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر صمّاءَ ملساء قاسية ، ليس فيها لين من رحمة ، ولا رقّة من إيمان ، فينجرف عنها غيث رحمة الله ، كما ينجرف الوابل عن الصفوان •

٣ــ ثم يقول الله تعالى أيضاً في سورة (البقرة) :

[ومَثَلُ الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاةِ الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنّة بربوةٍ اصابها وابلٌ فآتت اكلَها ضعفين فإن لم يصبها وابلٌ فَطلٌ والله بما تعملون بصير (٢٦٥) أيودّ احدكم ان تكون له جنّةٌ من نخيلٍ واعناب تجري من تحتها الأنهار، له فيها من كلّ الثمرات واصابه الكبر ، وله ذرّية ضعفاء ، فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت • كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكّرون (٢٦٦)] •

في هذا النصّ مثلان :

في الأول منهما إثارة لمحور الطمع في الانسان ، للتحريض على الاخلاص لله ، بابتغاء مرضاته والبذل في سبيله ، حتى يكون الباعث ذاتياً من أنفسهم ، بدافع من الايمان بالله واليوم الآخر ، ودافع من الرحمة وخلق الجود •

وفي الثاني منهما إثارة لمحور الخوف في الانسان ، ليكون على حذر من إبطال الصدقات بالمن والأذى،وليكون لديه محرّض ذاتي يبعده عمّا يبطل صدقاته، فإتباع الصدقة بالمنّ والأذى ، بمثابة الاعصار ذي النار تحرق الجنّات الخضرَ المثمرات ، مع أنّ الباذل أمامه مستقبل يحتاج فيه إلى كلّ ذرة من عمل صالح •

أما المثل الأول فهو مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم ، أي تثبيتاً من أنفسهم لايمانهم ، وخلق الرحمة والجود فيهم .

وقد ضرب الله لهؤلاء مثلاً بزارعٍ حصيف زرع جنّةً كثيفة الأشجار عظيمتها، بربوةٍ مرتفعة من الأرض ، سمينة التربة لا تجرفها السيول ، أصابها وابلٌ من السماء ، فآتت أُكُلَها ضعفين ، علماً بأنّ أكلها ثروة هائلة ، وأضعاف مضاعفة جداً لما بُذِر فيها ، فإن لم يُصبها وابل ـ وهو المطر الغزير ـ كفاها الطلّ ـ وهو المطر الخفيف ـ .

وختم الله المثل بقوله : (والله بما تعملون بصير) إلماحاً إلى واقع حال أنفس الباذلين ، فمن الباذلين من يستحق فيضاً من رحمة الله ومضاعفة الأجر يماثله الوابل من المطر ، ومن الباذلين من يستحق عطاءً يماثله الطلّ من المطر . فالوابل والطلّ صورتان لعطاء السماء تقابلان التفاوت في ثواب الباذلين ، إذ يعامل الله كل باذلٍ على قدر عمله وإخلاصه ، فمن الناس من يستحق وابلاً من رحمة الله وجوده ، ومن الناس من يستحق طلاً من رحمة الله وجوده..

وأمّا المثل الثاني فهو مثل الذين يبطلون صدقاتهم بالمنّ والأذى ، وقد استثار الله به في الذين آمنوا رغبة المحافظة على ما غنموه من أجرٍ عظيم ، إذا هم أنفقوا في سبيل الله وابتغاء مرضاته وتثبيتاً من أنفسهم لإيمانهم ، وذلك بأن لا يأتوا إليه بما ينسفه ويتلفه ويحرق ثمراته ، ألا وهو إعصار المنّ والأذى ، فالمنّ والأذى بالنسبة إلى أجر الصدقات العظيم كالإعصار الناري المحرق بالنسبة إلى جنّة فيها أفضل الشجر وأوفر الثمر . وفي عرض هذا المثل قال الله تعالى : « أيودّ أحدكم أن تكون له جنّة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر وله ذرّيّة ضعفاء ، فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت » .

أي لا تتبعوا صدقاتكم بالمن والأذى حتى لا يكون مثلكم كمثل من عنده هذه الجنة ذات الشجر الكثير ، والثمر الوفير ، والماء الغزير ، وله فيها من كل ما يحب من الثمر ، وقد كبرت سنّه وله ذرية ضعفاء يريد أن يكونوا من بعده أغنياء بما يورثهم من هذه الجنة ، حتى إذا كان وضعه كذلك فاجأه إعصار فيه

نار" ، فأحرق جنته هذه ، وأتلف كل شيء فيها • كذلك يفعل المنّ والأذى فيما هو منتظر للمؤمنين من أجر الصدقات •

والانسان يحتاج في آخرته كلّ عمل صالح قدّمه في دنياه ، فلا يأت أعمالـه الصالحات التي قدّمها بما يبطلها ويلغيها ، إنّ العمل القليل الذي يراه في منظاره قليلاً ، هو كزرع قليل ، إلاّ أن الله ينميه لـه ويضاعفه له أضعافاً كثيرة ، فإبطاله إبطال" لما وصل إليه بفضل الله •

٤ ــ وضرب الله أمثلة متعدّدة من قصص الأوّلين أبان فيها سنّته في معاملة عباده ومجازاتهم بالثواب أو بالعقاب ، ليحرّض طمع الطامعين بفضله ، حتى يؤمنوا ويُسلموا ويعملوا صالحاً ، وليثير خوف الخائفين من عدله ، حتى يجتنبوا ما يسخطه سبحانه من عقيدة أو نية أو عمل •

فمنها ما يلي :

أ ــ مثل أصحاب القرية التي جاءها المرسلون ، فكذبوهم وهددوهم بالرجم إن لم ينتهوا عن إرشادهم ودعوتهم إلى الله،ثم جاءهم من أقصى مدينتهم رجل يسعى، فقال لهم : يا قوم اتبعوا المرسلين ، اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون،فحاكموه على إيمانه برسل ربه ، فأعلن حجّته ، وأبان منطق إيمانه ، ثمّ أعلن تحدّيه لقومه ، فقالْ لهم : إنّي آمنت بربّكم فاسمعون ، فقتلوه ، فكان شهيد الايمان والدعـوة إلى الله ونصرة الحقّ بالحقّ ، فذهب إلى ربه ، فقيل له : ادخل الجنة ، فلما دخلها قال : ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين • وأمّا أهل القرية من بعده فلم يكونوا بحاجة إلى إنزال جند من السمـاء لإهلاكهـم ، إن هي إلا صيحة واحدة من صوت كوني مميت ، فإذا هم خامدون ميتون •

قال الله تعالى في سورة (يس) :

[واضرب لهم مثلاً أصحابالقرية إذ جاءها المرسلون (١٣) إذ أرسلنا إليهمْ اثنين فكذبوهما ، فعزّزنا بثالث فقالوا : إنّا إليكم مرسلون (١٤) قالوا : ما أنتم إلاّ بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلاّ تكذبون (١٥) قالوا: ربّنا يعلم إنّا إليكم لمرْسلون (١٦) وما علينا إلا البلاغ المبين (١٧) قالوا : إنّا تطيّرنا بكم ، لئن لم تنتهوا

لنرجمنكم وليمسنّكم منّا عذاب اليم (١٨) قالوا : طائركم معكم ائن ذُكّرتم ؟ . بل انتم قومٌ مسرفون (١٩) وجاء من اقصا المدينة رجلٌ يسعى . قال : ياقوم اتبعوا المرسلين (٢٠) اتبعوا من لا يسالكم اجراً وهم مهتدون (٢١) ومالي لا اعبدُ الذي فطرني وإليه ترجعون (٢٢) اأتخذُ من دونه آلهةً إنْ يُردنِ الرحمنُ بضُرٍ لا تغنِ عنّي شفاعتُهم شيئاً ولا ينقذون (٢٣) إنّي إذاً لفي ضلالٍ مبين (٢٤) إنّي آمنتُ بربكم فاسمعون (٢٥) قيل : ادْخلِ الجنّة . قال : ياليت قومي يعلمون (٢٦) بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمين (٢٧) وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنّا منزلين (٢٨) إنْ كانت إلاّ صيحة واحدة فإذا هم خامدون (٢٩)ياحسرةً على العباد ما ياتيهم من رسولٍ إلاّ كانوا به يستهزِئون (٣٠)] .

إنّه مثلٌ واقعيّ ، وفي المثل الواقعيّ عبرةٌ مثيرة للخوف من عقاب الله ، ومحرّكة للطمع بفضله ، فالّذين كذبوا الرّسُل أهلكوا في الدنيا بالصيحة ، ولهم في الآخرة عذاب النار ، والرجل المؤمن الذي دعاهم إلى الله ، ونَصَرَ رسُل ربه ، واستشهد في سبيل الله ، دخل الجنة ، وغفر الله له ، وجعله من المكرمين [1] .

ونلاحظ في عرض القصة أموراً مطويّة لم تذكر لفظاً ، اعتماداً على أنّ النظر الذكيّ يكشفها .

فمن المطويّات ما جاء محذوفاً بين :

« وجاء من أقصا المدينة رجلٌ يسعى . قال : يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون » .

وبين ما جاء بعده ، وهو : « ومالي لا أعبُد الذي فطرني ... »

---

(١) ذكر بعض اهل التفسير ان اسم القرية التي جاءت في هذا النصّ انطاكيّة ، وانتقد ابن كثير هذا الراي من وجوه قوية ، وقيل : أسماء الرسُل الثلاثة « صادق وصدوق ، وشلوم » وذكر المفسرون ان اسم الرجل المؤمن الذي نصرهم « حبيب النجار » . ولا أرى لكلّ هذه الأقوال سنداً يمكن الاعتماد عليه ، من تاريخ مقبول ، او خبر صحيح عن رسول ، على انه لا يهم معرفة ذلك ، المهمّ أنّ القصة وقعت ، والمثل فيها كافٍ لعظة من آمن وعقل .

والظاهر أنّ أهل القرية لما دعاهم هذا الرجل المؤمن منهم لا تباع الرسُل ، اعتبروه صابئاً عن دينهم ، وخارجاً عن ملّتهم ، فحاكموه ، فقالوا له مثلاً : أتركت عبادة آلهتنا ، وذهبت تعبد ما يدعو إليه هؤلاء الرسُل ؟ • فقال لهم : « ومالي لا أعبد الذي فطرني ••• » إلى آخر مقالته المملوءة بحجج الايمان •

ولمّا شدّدوا عليه أعلن تحدّيه لهم ، وإصراره على إيمانه بربهم خالقهم ورازقهم ومن بيده مقاليد أمورهم ، لا بآلهتهم التي يعبدونها من دون الله ، والتي لا تغني شفاعتهم شيئاً ، ولا ينقذونه من عذاب الله ، فقال لهم منادياً بأعلى صوته ، ليسمع آخر الجمع من أهل قريته : إني آمنتُ بربكم فاسمعون •

وبعد مقالة التحدّي هذه كلامٌ مطويّ آخر ، لم يصرّحْ به النصّ للعلم به مما جاء وراءه ، وهو ما يدُلّ على أنّهم حكموا عليه بالقتل فقتلوه ، دلّ على هذا المطوي قول الله تعالى عقب حكايته لمقالة التحدّي :

« قيل : ادخل الجنّة • قال : ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمين » •

ويؤكّد هذا أنّ النصّ الذي دلّ على إهلاك أهل القرية ، أبان أنّ إهلاكهم بالصيحة قد كان من بعده ، فقال تعالى :

« وما أنزلنا على قومه من بعده من جندٍ من السماء وما كنّا منزلين • إنْ كانت إلاّ صيحة واحدةً فاذا هم خامدون » •

رحمة الله وبركاته على هذا المؤمن المجاهد الصابر الشهيد ، قال ابن عباس : نصح قومه في حياته بقوله : « يا قوم اتبعوا المرسلين » وبعد مماته بقوله : « ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمين » •

وتساءل : ما الذي جعل أهل القرية يقولون لرسلهم : « إنّا تطيرنا بكم » ؟

ويظهر لي في الجواب أنهم بسبب تكذيبهم لرسُلهم أصيبوا بشيء مما يكرهون من قحط أو جوائح أو أمراض ، وهو ما جرت به سنة الله قبل إنزال العقاب الشامل ، لذلك تطيروا من رسلهم • فقال لهم رسلهم : طائركم معكم ، أي أعمالكم هي

سبب بلائكم ومصائبكم ، أإنْ ذكرتمْ بربّكم تطيرتم بنا وهددتمونا بالرجم والعذاب الأليم ؟!

ب ـ ومثل القرية التي قال الله في شأنها في سورة (النحل) :

[وضرب الله مثلاً : قريةً كانت آمنة مطمئنّة يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان . فكفرت بأنعمِ الله . فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون (١١٢) ولقد جاءهم رسولٌ منهم فكذّبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون (١١٣)] .

في هذا النصّ القرآني مثلٌ يحكي قصّة أصحاب قرية كانت آمنة مطمئنّة ، يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان ، فكفرت بأنعم الله ، وكذّبت رسول ربّها ، فبعث الله عليها جوعاً عامّاً وخوفاً شاملاً كانا عليها كاللّباس الشامل ، عقوبة لها وإنذاراً ، وعظةً وذكرى لمن شاء أن يتذكر .

أمّا المراد من هذه القرية فقد قال ابن عباس : إنّها مكّة . كانت آمنة مطمئنّة يجبى لها ثمرات كلّ شيء ، فكذّب أهلها وهم مشركو قريشٍ ومن تبعهم برسول الله محمد ﷺ ، وكفروا بأنعم الله عليهم ، فدعا الرسول (ﷺ) عليهم بسبعٍ من السنين شديدة كسبعِ يوسف ، فذاقوا جوعاً شديداً ، وقويت شوكة المسلمين في المدينة ، فكانوا منهم في قلقٍ دائم ، وخوفٍ من غزوٍ مداهم .

وما قاله ابن عبّاس ذهب إليه مجاهد وقتادة والزهري ورجّحه ابن كثير .

والسياق يؤيد أنّ المقصود كفار قريش في عهد الرسول ﷺ .

جـ ـ ومثلُ الرجُلين اللّذين جعل الله لأحدهما جنتين من أعناب ، وهو المثل الذي ذكره الله بقوله في سورة (الكهف) :

[واضرب لهم مثلاً : رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً (٣٢) كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً . وفجرنا خلالهما نهراً (٣٣) وكان لـه ثمرٌ . فقال لصاحبه وهو يحاوره : أنا أكثر منـك مالاً وأعزّ نفراً (٣٤) ودخل جنته وهو ظالم لنفسه . قال : ما أظنّ أن تبيد هذه أبـداً (٣٥) وما أظنّ الساعة قائمـة ، ولئن رددتُ إلى ربّي لأجـدنّ خيراً منها منقلبـاً (٣٦) قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذي خلقك من ترابٍ ثم من نطفة ثم سوّاك

رجلاً ؟! (٣٧) لكنا هو الله ربّي ولا اشرك بربّي احداً (٣٨) ولولا إذْ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلاّ بالله . إنْ ترن انا اقلّ منك مالاً وولداً (٣٩) فعسى ربّي ان يؤتيني خيراً من جنتك ، ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً (٤٠) او يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً (٤١) واحيط بثمره . فأصبح يقلّب كفّيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها . ويقول : ياليتني لم أشرك بربّي احداً (٤٢) ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً (٤٣) هنالك الولاية لله الحقّ هو خيرٌ ثواباً وخير عقباً (٤٤)] .

(جعلنا لأحدهما جنتين) أي بستانين مليئين بالأشجار الكثيفة الساترة بظلّها ما تستر من أرضهما .

(وحففناهما بنخل) أي وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين .

(ولم تظلم منه شيئاً) أي ولم تنقص من أكلها شيئاً بل يأتي وافياً وافراً .

(وأعزّ نفراً) أي وأقوى عشيرة وأصحاباً وأنصاراً . ونفر الرجل عشيرته وأصحابه وأعوانه الذين يدافعون عنه وينفرون معه إلى القتال إذا دعا الداعي .

(لكنّا هو الله ربّي) أصلها لكنْ أنا هو الله ربي ، فحذفت همزة أنا وألقيت حركتُها على نون لكن فاجتمعت النونان فأدغمتا ، فصارتا نوناً واحدة مشددة .

(ويرسل عليها حسباناً من السماء) الحسبان : العذاب ، وهو على هذا مصدر كالغفران . وقيل : الحسبان المرامي وهي الصواعق التي تنزل من السماء فتدمّر ما تقع عليه ، وعلى هذا فالحسبان جمع مفرده حُسبانة .

(فتصبح صعيداً زلقا) صعيداً : أي أرضاً ملساء لا شجر فيها ولا نبات . زلقاً : أي لا تثبت عليها قدم بل تنزلق عنها .

(أو يصبح ماؤها غوراً) أي غائراً في الأرض . فالغور مصدر وصف به ، فهو بمعنى اسم الفاعل ، نحو رجل عدل ، أي عادل .

(وهي خاوية على عروشها) أي وهي خالية ، لا ثمر فيها ، أحطاب" على عروشها .

(هنالك الولاية لله الحق) الولاية بفتح الواو هي النصرة والتولّي • وبكسر الواو هي السلطان والملك[1] •وفي اللفظة قراءتان ، والمعنى : هنالك النصرة والتولّي لله الحق ، وهنالك السلطان والملك لله الحق •

واضح في هذا المثل أنه يشتمل على قصة رجلين سلفا في الزمان الأول : أحدهما كان مؤمناً بالله واليوم الآخر ، والآخر كان كافراً بربّه منكراً لليوم الآخر •

أمّا الكافر منهما فقد آتاه الله مالاً وخدماً وولداً ، وجعل له جنتين من أعناب، محفوفتين بنخل ، بينهما زرع ، يجري خلالهما نهر يسقيهما ، تؤتيان ثمرهما كاملاً غير ناقص •

وفي سنة من سنوات الإنتاج الطيب ، والثمر على شجره بهيج ، التقى الرجلان، فبدأ الكافر منهما يفتخر على المؤمن بكثرة ماله وأولاده وقوة أعوانه ، كأنه يدعو صاحبه إلى أن يسلك مثل طريقته ، ويلومه على إيمانه ، ويوحي له بأنّ طريقة إيمانه أفقرته ، ثم أخذ بيد صاحبه ودخل جنّته مفتوناً بإتقان زراعتها وحمايتها من الجوائح ، وقال له : ما أظنّ أن تبيد هذه أبداً ، فهي محصّنة بالأسوار ، محصنة من الرياح الباردة بأشجار النخيل المحيطة بها ، مخدومة أحسن خدمة •. وتمادى في غروره ، فأعلن إنكاره للسّاعة ، فقال : وما أظنّ الساعة قائمة • ثم تمادى مرّة ثانية في غروره فزعم أنه قد جاءه هذا الغنى لجدارة فيه ، واستحقاقٍ ذاتي له ، فقال : ولئن رُدِدْتُ إلى ربي لأجدنّ خيراً منها منقلباً •

أي على الفرض والتقدير البعيد ، إنْ كانت توجد رجعة إلى الحياة مرّة أخرى ، فإنّ ربّي سيعطيني جنّة خيراً من هذه الجنّة ، لأنني أستحقّ ذلك •

أجابه صاحبه بأسلوب الاستفهام الانكاريّ ، المتضمّن أنّ ما ارتكبه من الظلم لنفسه أمرٌ عظيم شنيع فقال له : أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثمّ سوّاك رجلاً ؟!

لقد أرشده في جوابه هذا إلى دلائل الايمان ، وذكّره بأصل نشأته ، وأنّه

---

(١) كذا ذكر صاحب الكشاف (عن الرازي) .

كان تراباً ، ثمّ كان نطفة مهينة ، ولولا أن سوّاه الله رجلاً تامّ الصّفات الإنسانية، لبقي تراباً أو نطفة مستقذرة •

وبعد هذا أعلن له عقيدته بربّه ، فقال له : لكنّا (أي لكن أنا) هو الله ربّي ولا أشرك بربّي أحداً •

ثمّ نصحه بأن يذكر نعمة الله وفضله عليه ، وبأنه لولا مشيئة الله وإمداده له بالقوة لم تكن له جنّة ، ولم تنبت له أشجار ولاثمار ، فقال له : ولولا إذْ دخلت جنّتك قلت : ما شاء الله لا قوة إلاّ بالله • وفي هذا الذكر ـ الذي هو تعبير عن عقيدة المؤمن بربه في تصاريف الكون ـ تحصين" من عوارض السوء ، واستجداء" لدوام إمداد الله ، فالله هو الذي يدفع بمقاديره الجوائح ، وهو الذي يمد بمقاديره بأسباب البقاء والنماء •

ثمّ وجّه نظره للدّار الآخرة ، وما أعدّ الله للمؤمنين فيها من خير عظيم وثواب جزيل ، وأبان له أنّ مكر الله غير مأمون ، وأنّ معجّل عقابه في الدنيا ربّما يقع ، وأنّ من معجّل عقابه أن يسلُبَ النعمة التي كانت سبب الفتنة •

وليصرف عنه أوهامه التي جعلته يقول : « ما أظن أن تبيد هذه أبداً » ذكّره بالمخاطر التي ربمّا كان غافلاً عنها ، وهذه المخاطر لا يملك التحصين منها ، فلا مندوحة له من الايمان بالله والالتجاء إليه والتوكل عليه ، ليدفع عنه عوارض البلاء : ومن هذه المخاطر أمطار" غزيرة متلفة ، وصواعق سماوية ، ورياح عاتية تكسر الشجر وتتلف الثمر وتجرف الجنّة من أصولها ، حتى تصبح صعيداً زلقاً ، أي أرضاً لا تثبت عليها قدم ، ولا ينبت فيها زرع • ومن هذه المخاطر أن يغوّر الله الماء في الأرض ، فلا يبقي للجنّة نهراً جارياً ، ولا عيناً معينة ، ولا مسرباً في باطن الأرض يمدّ بئراً ، ومهما طلب الماء حفراً في الأرض فلن يستطيع الظفر به ، لأن الله قد غوره • لذلك قال له : إن ترنِ أنا أقلّ منك مالاً وولداً فعسى ربي أن يؤتينِ خيراًمن جنّتك (أي في الدار الآخرة) ويُرسِلَ عليها (أي على جنّتك) حُسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً ، أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً •

وعاقب الله المغرور بجنتيه ، الكافر بربه وباليوم الآخر ، فأرسل عليهما ما أتلف

ثمرهما ، فأصبح يقلّب كفّيه حسرة وندماً على ما أنفق فيها ، ويقول : ياليتني لم أشرك بربي أحداً •

لقد أثّرت فيه موعظة العقاب ، بعد أن لم تؤثر فيه موعظة الخطاب •

وهكذا نلاحظ في هذا المثل أنه يثير محور الخوف من عقاب الله لدى كلّ مَنْ تؤثر فيه العظات ، وتنفعه الذكرى •

- ٦ -

شرح الغرض الخامس

وهو المدح أو الذمّ ، والتعظيم او التحقير

فكثيراً ما نلاحظ في الأمثال أنّها أسلوب بارع جدّاً لمدح من ضرب له المثل ، أو ذمّه ، أو تعظيمه أو تحقيره •

امثلة :

١ ــ ما ضربه الله من مَثَلٍ لأصحاب محمد ﷺ في التوراة والانجيل ، وذكره لنا في القرآن بقوله تعالى في سورة (الفتح) :

[محمدٌ رسول الله والذين معه اشدّاء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من اثر السجود ؛ ذلك مثلهم في التوراة • ومَثَلهم في الانجيل كزرعٍ اخرج شطاه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار • وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجراً عظيماً (٢٩)] •

(مثلهم في التوراة) أي وصفهم في التوراة •

من الظاهر أنّ الله تبارك وتعالى كما بشر بمحمد وأصحابه في التوراة والانجيل بذكر صفاتهم ، فقد مدحهم فيهما ببيان أوصافهم الرفيعة السامية •

فمثلهم في التوراة جاء بذكر صفاتهم دون تشبيه •

ومثلهم في الانجيل جاء عن طريق تشبيههم بالزّرع الذي ينمو ويتعاظم بسرعة عجيبة •

فوصفُ أصحاب محمد ﷺ في التوراة قد اشتمل على ما يلي :

أولاً : (أشداءعلى الكفار) . أي فهم شجعان أهل بأس وجهاد وجلاد ، وتضحية وفداء ، يقاتلون أعداء الله بقوّة .

ثانياً : (رحماء بينهم) أي مجتمعهم مجتمع تآخٍ وتوادٍّ وتعاونٍ وتراحم ، كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر .

ثالثاً : (تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود) أي فهم عُبّاد لله مخلصون في عباداتهم له ، إذ يبتغون فضلاً من الله بالثواب الذي وعد به عباده المؤمنين الذين يعبدونه مخلصين له الدين . ويبتغون رضواناً من الله ، لأنهم يعلمون أنّ السعادة العظمى تحصل لهم بالظفر برضوان الله . ولمّا كانوا من الذين يكثرون السجود لله تعالى ويطيلون مدّته كانت علامته ظاهرة في وجوههم .

ومن هذه الصفات نستطيع أن نستخلص صفات المجتمع المثالي ، فهو مجتمع مؤمن ، عابد لربّه ، متراحم فيما بينه ، مجاهد شجاع ضدّ أعداء الله .

أمّا وصف أصحاب محمد ﷺ في الانجيل فقد تناول عن طريق التمثيل والتشبيه مظهر نماء الأمة الاسلامية وتكاثرها وتماسكها ووحدة كيانها ، بدءاً من النواة الأولى لهذه الأمة ، فالقلّة المخلصة التي اجتمعت حولها ، إلى التكاثر السريع، حتى أخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً .

فمثلهم كزرع يبدأ نباتاً ضعيفاً ، ثمّ يشتدّ شيئاً فشيئاً ، ثمّ تنبت من جوانبه فراخه وصغاره ، ثم يقوى ويشتدُ عوده ، ثمّ ينتشر في الأرض ، عندئذٍ يعجبُ الزراع .

ولمّا استكملت الصورة عناصرها في المثل ، وحضرت صورة الممثّل له في الذهن ، كان المثل بمثابة الممثل له تماماً ، فبنى النصّ على هذه الصورة الذهنية التي أحضرها المثل ، فقال الله تعالى : « ليغيظ بهم الكفار » كأن الذي جاء قبلها هو : ومثلهم في الإنجيل يبدأون ضعافاً ، ثم يتكاثرون وتقوى شوكتهم ، وينتشرون في الأرض ، ويشدّ الله أزرهم ، وينصرُهم على عدوّهم ، ليغيظ بهم الكفار الذين كفروا به .

٢ ـ وضرب الله مثلاً للذين حُمّلوا التوراة من بني إسرائيل ثمّ لم يحملوها (أي تعلّموا الألفاظ وحفظوها ، ثمّ لم يفهموا دلالاتها ولا عملوا بها ، أو تعلموها وفهموا معانيها ولم يعملوا بها) بالحمار الذي يحمل على ظهره أسفار العلم ، وهو لا يفقه ما فيها من دلالات ، ولا يعمل بشيءٍ منها ، وظاهر أن الغرض من ضرب المثل لهم بهذا ذمّهم بالجهالة المساوية لجهالة البهائم .

لقد كان من الممكن أن يختار في المثل بدل الحمار الجمل أو الحصان ، فهما أيضاً لا يفقهان شيئاً ممّا يحمّل على ظهورهما من أسفار العلم ، لكن التمثيل بالحمار أبلغ في الذّمّ ، لاشتهار الحمار عند الناس بالبلادة والغباء والجهالة المفرطة .

قال الله تعالى في سورة (الجمعة) :

[مثل الذين حُمّلوا التوراة ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله . والله لايهدي القوم الظالمين (٥)] .

٣ ـ ومن الشواهد التي يلاحظ أنّ الغرض من ضرب المثل فيها التعظيم ، ضرب المثل للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ، التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ، مع ما يتضمّن من أغراض أخرى .

قال الله تعالى في سورة (إبراهيم) :

[الم تر كيف ضرب الله مثلاً : كلمة طيّبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء (٢٤) تؤتي اُكلها كلّ حين بإذن ربها . ويضرب الله الأمثال للناس لعلّهم يتذكرون (٢٥)] .

وقد سبق شرح هذا النص .

٤ ـ ومن الشواهد التي يلاحظ أنّ الغرض من ضرب المثل فيها التحقير ، ما تكرّر في القرآن من ضرب المثل لتحقير الحياة الدنيا ، وتهوين شأنها وشأن لذّاتها ومتاعها ، ولسرعة زوالها وفنائها ، بدورة من دورات الربيع ، وما يظهر فيه من خضرة ونضرة ، ولكن سرعان ما تذبل وتصفرّ ، ثمّ يتكسّر الزّرع ويتحطّم ، ثمّ يزول ويفنى ، وتعود الأرض جَرْداءَ غبراء .

فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (الكهف) :

[واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيمة تذروه الرّياح وكان الله على كل شيءٍ مقتدراً (٤٥) المالُ والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً (٤٦)] .

(هشيماً) : الهشيم هو النبت اليابس المتكسر . (تذروه) : تنسفه وتطيّره .

وقول الله تعالى في سورة (يونس) :

[إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ممّا يأكل الناس والأنعام . حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّيّنت وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس . كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون (٢٤) والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (٢٥)] .

(دار السلام) : هي الجنة التي وعد المتقون .

وقول الله تعالى في سورة (الحديد) :

[اعلموا انّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفّار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور(٢٠)] .

(أعجب الكفار) : أي أعجب الزّرّاع . (ثم يهيج) : أي ثم ييبس ويصفرّ . (ثم يكون حُطاماً) : الحُطام ما تكسّر من اليبيس .

— ٧ —

شرح الغرض السادس

وهو شحذ ذهن المخاطب ، وتحريك طاقاته الفكرية، أو استرضاء ذكائه، لتوجيه عنايته ، حتى يتأمّل ويتفكر ويصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكر .

وهذا النوع من الأمثال يخاطب به الأذكياء وأهل التأمل والتفكر ، ومعلوم أنّ استخدام الأساليب الذكية التي يحتاج إدراك المراد منها إلى ذكاء ، مما يرضي

الأذكياء ، ويحرك طاقاتهم الفكرية ، ويلفت أنظارهم بقوة ، ويدفعهم إلى توجيه عنايتهم ، لإدراك المراد بالتأمّل وإمعان النظر .

ونظيره في آداب الناس مايضربونه من أمثال في الأحاجي والألغاز ، ليستخرج الأذكياء المراد منها ، وليقاس بها مقدار ذكاء المخاطبين أو سرعة انتباههم .

ومن الأمثال القرآنية التي قد تصلح شاهداً لهذا ، قول الله تعالى في سورة (الحشر) :

[لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلّهم يتفكّرون (٢١)] .

إنّ إنزال القرآن على جبل من الجبال ليس من خبرات الناس ،حتى يضرب المثل به للاقناع أو للتقريب أو لغير ذلك من الأغراض التي سبق شرحها ، لكنّه مَثَل" يحرّك في الأذكياء طاقاتهم الفكرية ويوجّه عنايتهم حتى يتأملوا ويتفكروا ويدرسوا ويتابعوا البحث ، رجاء أن يصلوا إلى معارف يحلّون بها لغز هذا المثل .

ويشير إلى هذا قول الله تعالى عقب ضرب المثل : « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلّهم يتفكّرون » فما جاء في المثل يحتاج إلى تفكّر . وأشار إلى بُعد مُدْرك هذا النوع من الأمثال بقوله : « وتلك » إذ من المعلوم أنّ هذه الإشارة تستعمل فيما هو بعيد حسّاً أو معنىً أو منزلة .

ولدى التفكّر في هذا المثل على مقدار أفهامنا يظهر لنا ما يلي :

أولاً : يوجد معنى قريب يدلّ عليه النصّ بجملته ، وهو مطالبة المؤمنين بأن يقرؤوا القرآن ويستمعوا إلى آياته بخشوع وتدبّر ، حتى تهتز قلوبهم ، وتقشعرّ جلودهم من خشية الله .

فمن خصائص هذا القرآن أنّ الله تعالى لو أنّه أنزله على جبل في قسوته وكبر حجمه ، لرأيته خاشعاً ساكناً متصدّعاً متكسراً من خشية الله ، لما له من قوة تأثير جعلها الله فيه .

ثانياً : وباستطاعتنا أن نتعمّق فنقول : إنّ القرآن كلام الله ، وهو نور من نور الله ، ونور الله إذا توجه لشيء ما في الوجود سواء" أكان حيّاً أو جماداً خشع وتفجّرت منه الخشية على قدره .

لذلك لما سأل موسى عليه السلام ربّه فقال : رب أرني أنظر إليك ، قال : إنّك لن تراني ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلمّا تجلّى ربّه للجبل (أي كشف الحجُبَ عن نور ذاته عزّ وجل) لم يقو الجبل على تحمّل مواجهة نور الله ، فاندكّ بتأثير سطوة النور الرّبّاني ، ورؤية موسى عليه السلام للجبل الذي تجلّى نورٌ من نور الله له جعلته يخرّ صعقاً لا حياة له ، لأنه لم يقو على تحمّل تجلّي النور الرّباني للجبل ، فكيف به لو أنه تجلّى له مباشرة؟!

بعد هذا نقول : لو أنّ نور القرآن أنزل على جبل لخشع وتصدّع من خشية الله ، ولرأى الراؤون أثر ذلك فيه .

ويدلّ على هذا أيضاً قول الله تعالى في سورة (الرعد) :

[ولو أنّ قرآناً سيّرت به الجبال اوقطعت به الأرض او كلّم به الموتى..(١٣)].

أي لكان هذا القرآن ، إذ النور الرّباني فيه يفعل الأعاجيب فتسير به الجبال عن أماكنها ، وتقطّع به الأرض ، ويكلّم به الموتى فتسمع وتجيب .

ومن هذا تأثير الرقى القرآنية ، كما ثبت ذلك في الصحيح ، وفي التجارب .

ولكن ليس كلّ تالٍ للقرآن يصاحب تلاوته نور القرآن الرّباني ، وذلك لأنّ ربط النور الرباني بالألفاظ والحروف المجردة ربط ضعيف لا دليل عليه ، لكن نور القرآن يتفجر على مقدار إيمان التالي لآياته ، وعلى مقدار قوة أسلاكه الروحية الموصولة بالله ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يتلو القرآن فيكون للقرآن بتلاوته له نور عظيم ، لو أذن الله له به أن يُسيّر الجبال لفعل ، ومؤمن ضعيف الإيمان يتلو القرآن فلا يتفجر من نور القرآن بتلاوته إلاّ خيط دقيق ، أو رذاذ من شعاع يسير ، وترتقي المراتب ، وفي قمتها مرتبة النبي ﷺ .

وحين يقرأ القرآن إنسان كافر بالله واليوم الآخر ، لا يتفجر من نور القرآن لديه شيء ، لانقطاع صلته الروحية الايمانية بالله ، فمن أين يستمدّ النور .

إن الألفاظ والحروف وحدها إذا لم تكن موصولة بالله عن طريق قلب المؤمن وروحه كانت عديمة الأثر ، والله أعلم .

جدول أغراض ضرب الأمثال

← الغرض الأول ـ تقريب صورة الممثّل له إلى ذهن المخاطب عن طريق المثل .

← الغرض الثاني ـ الاقنـاع بفكرة من الأفكار .

وهذا الاقناع

١ قد يصل إلى مستوى إقامة الحجة البرهانية

٢ وقد يقتصر على مستوى إقامة الحجّة الخطابية

٣ وقد يقتصر على لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة

← الغرض الثالث ـ الترغيب أو التنفير

فالترغيب يكون بتزيين الممثّل له وإبراز جوانب حسنه ، عن طريق تمثيله بما هو محبوب للنفوس مرغوب لديها .

والتنفير يكون بابراز جوانب قبح الممثّل له عن طريق تمثيله بما هو مكروه للنفوس ، أو تنفر النفوس منه .

← الغرض الرابع ـ إثارة محور الطمع أو الرغبة في الإنسان ، أو إثارة محور الخوف والحذر .

← الغرض الخامس ـ المدح أو الذمّ ، والتعظيم أو التحقير .

← الغرض السادس ـ شحذ ذهن المخاطب ، وتحريك طاقاته الفكرية ، أو استرضاء ذكائه ، لتوجيه عنايته حتى يتأمّل ويتفكر ويصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكر .

وهذا النوع من الأمثال يخاطب به الأذكياء ، وأهل التأمل والنظر والبحث العلمي ، وكبراء القوم .

الفصل الرّابع

خصائص الأمثال القرآنيّة



خصائص الأمثال القرآنية

- ١ -

من تتبع الأمثال القرآنية نستطيع اكتشاف الخصائص التالية لها :

الأولى : دقّة التصوير مع إبراز العناصر المهمّة من الصورة التمثيلية .

الثانية : التصوير المتحرك الحي الناطق ، ذو الأبعاد المكانية والزمانية ، والذي تبرز فيه المشاعر النفسية والوجدانية والحركات الفكرية للعناصر الحيّة في الصورة .

الثالثة : صدق المماثلة بين المثل والممثّل له .

الرابعة : التنويع في عرض الأمثال ، مرّةً بالتشبيه ، ومرّة بالعرض المفاجىء ، وبالتمثيل البسيط ، وأخرى بالتمثيل المركّب الذي يطابق كلّ جزء منه جزءاً من الممثّل له ، وأخرى بالتمثيل المركب الذي ينتزع منه وجه الشبه بنظرة كليّة عامّة ، وغير ذلك من فنون القول وأساليبه .

الخامسة : البناء على المثل والحكمْ عليه كأنّه عين الممثَّل له ، على اعتبار أنّ المثل قد كان وسيلة لإحضار صورة الممثّل له في ذهن المخاطب ونفسه ، وإذْ حضرت صورة الممثّل له ولو تقديراً ، فالبيان البليغ يستدعي تجاوز المثل ، ومتابعة الكلام عن الممثّل له ، وتسقط صورة المثل لتبرز القضايا المقصودة .

السادسة : كثيراً ما يُحذف من المثل القرآني مقاطع من الصورة التمثيلية ، اعتماداً على ذكاء أهل الاستنباط ، إذْ باستطاعتهم أن يتصوّروا في أذهانهم كامل الصورة ويتموا ما حذف منها .

وعلى هذا فقد تعرض الصورة التمثيلية من وسطها ، أو من مشهد أخير فيها .

وقد يحذف أيضاً من الممثّل له مقاطع ، فتعرض مثلاً بداياته ، وتحذف نهاياته ، أو العكس ، اعتماداً على أنّ المثلَ قد ذكرت فيه الصورة المماثلة لما حُذف من الممثّل له ، فيدلّ المعروض في كلّ منهما على المحذوف من صاحبه .

— ٢ —

أمثلة :

١ ــ قال الله تعالى في سورة (البقرة) :

[ومثلُ الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلاّ دعاءً ونداءً صمٌ بكم عميٌ فهم لايعقلون (١٧١)] .

(ينعق) : أي يصيح في الغنم ، والنعيق : هو صياح الراعي في غنمه .

هذا مثلٌ لصنف من الكافرين ، وهم الذين رفضوا أن يستجيبوا لدعوة الايمان ، لأنّهم صمموا على أن لا يؤمنوا ، واختاروا بكمال إراداتهم سبُل الكفر على سبيل الإيمان .

وهم الذين قال الله في شأنهم في أوائل سورة (البقرة) :

[إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (٦) ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذا بعظيم (٧)] .

هؤلاء قسم من الكفار ، كفروا عن تصميم على رفض الإيمان ، وإرادة جازمة لهذا الرفض ، بعد وضوح دلائل الإيمان لهم ، ولـم يكفروا عن جهلٍ أو غفلة ، أو انشغال بالشهوات . لذلك فإنّ عقدة هذا القسم من الناس موجودة في أعماقهم ، ومن كانت عقدة كفره في أعماق نفسه ، كانت النتيجة الطبيعيّة التي تقضي بها سنة الله في خلقه أن يختم على قلبه فلا يقبل الهداية ، وأن يكون على سمعه غشاوة لا تسمح بانتقال أقوال الهداية إلى مراكز إدراكه الواعي ، وأن يكون على بصره غشاوة لا تسمح بانتقال مرئيات الهداية إلى مراكز وعيه ، فسواءٌ عليه أأنذرته أم لم تنذره ، إنه لا يؤمن ، لأنه لا يريد أن يؤمن .

فاذا استوى لدى هذا القسم من الكافرين الإنذار وعدمه ، ودعوتهم إلى الهداية وعدم دعوتهم ، لأنهم أرادوا أن لا يؤمنوا ، وصمموا على ذلك ، فإنّ باستطاعتنا أن نمثّل من يدعوهم بمن يدعو الجدار ويخاطبه ، وأنْ نمثّل من ينذرهم بمن ينذر الحجارة التي لا تستجيب لداعيها أو منذرها .

لكنّ الجدُر أو الحجارة لا تسمع شيئاً وهم يسمعون ، إلاّ أنّ ما يسمعونه لا ينفذ إلى مراكز وعيهم الذي يؤثر فيهم ، فلا يهزّهم بطمع ولا بخوف .

إذن فأحسن تمثيل لهم أن نمثّلهم بالأنعام ، وأن نمثل من يدعوهم إلى الهدى وينذرهم عاقبة كفرهم بخطيب يقف في قطيع من الغنم ، فيخطب فيه خطبة بليغة ، إنّ هذا هو التمثيل الملائم المطابق لصُورة الممثّل له ، والمراعى فيه دقة التصوير ، وهو ما جاء في المثل القرآني .

فمثل من يدعو الذين كفروا ممّن استوى لديهم الإنذار وعدمه ، كمثل من يخاطب بصوته العالي قطيعاً من الغنم ، فلا يسمع القطيع منه إلاّ دُعاءً ونداءً ، لأنه لا يفهم ولا يعي الكلام الذي يخاطب به ، ولا يدرك دلالاته ، وهؤلاء كذلك ، لأن سمعهم الواعي عليه غشاوة من عقدة كفرهم ، ومثل سمعهم سائر حواسّهم ، لذلك فهم بالنسبة إلى دعوة الإيمان وآياته صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون .

وهكذا وضحت لنا دقة التصوير ، ووضحت لنا أيضاً في الصورة التمثيلية الحركة الحيّة الناطقة ، إذْ بدا فيها ناعق يخطب في قطيع من الغنم ، والقطيع يموج بعضه في بعض ، وهُو لا يدري من كلام الناعق الخطيب شيئاً ، ونفس الخطيب تتمزق بمشاعر الخيبة ، وعدم جدوى عمله .

٢ ــ وقال الله تعالى في سورة (ابراهيم) :

[مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح في يومٍ عاصف لايقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد (١٨)] .

يصوّر هذا المثل أعمال الذين كفروا في مقاومة رسُل الله ، ومحاربة دينه ، تجاه نصر الله لرُسله وأوليائه إذا شاء ، برمادٍ مجتمع لا تماسك بين ذرّاته ، وهو خفيف لاوزن له ، فاشتدت به ريح عاتية في يوم عاصف ، فنسفته وبدّدته تبديداً .

فهل يقدر صاحب الرّماد أن يجمع ذرات رماده بعد أن بدّدته أيدي الرياح العاتيات ؟

كذلك الذين كفروا تغدو أعمالهم التي أعدّوها لمحاربة رسل الله ودينه أمام سلطان نصر الله ، مثل هذا الرماد الذي اشتدت به الريح في يومٍ عاصف . إنّهم لا يقدرون ممّا كسبوا على شيء .

أو ليس ضلالهم في محاربة دين الله هو الضلال البعيد ؟

بلى : « ذلك هو الضلال البعيد » .

من الواضح في هذا المثل دقة التصوير المتحرك ، مع صدق المماثلة بين المثل والممثّل له .

٣ ــ وقال الله تعالى في سورة (آل عمران) :

[إنّ الذين كفروا لن تغني عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئاً واولئك اصحاب النار هم فيها خالدون (١١٦) مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌّ اصابت حرث قومٍ ظلموا انفسهم فاهلكته . وما ظلمهم الله ولكن انفسهم يظلمون (١١٧)] .

(فيها صرٌّ) : أي فيها بردٌ شديد .

أبان هذا النصّ أنّ الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم التي يبذلونها في إعداد العدة لمحاربة دين الله ، وإقامة الحصون ، واستخدام الجنود ، ولن تغني عنهم أولادهم الذين يعينونهم في ذلك ، من بأس الله شيئاً إذا أراد الله إنزال بأسه وعقابه فيهم .

ثمّ ضرب مثلاً لخيبة أعمالهم بقوم بذلوا أموالهم ووجّهوا أعوانهم وأولادهم لاستثمار أرض في الزراعة ، فنبت الزّرْع ونما ، ودنا وقت حصاده والانتفاع به ، فأرسل الله عليه ريحاً باردة فأهلكته ، وكان ذلك بسبب أنهم ظلموا أنفسهم .

فالممثّل له ما ينفقون من أموال في هذه الحياة الدنيا لتدعيم قضايا الكفر ،

وتهديم قضايا الايمان ، وعاقبة ما ينفقون إذا أراد الله إفساد أعمالهم ، وإنزال بأسه فيهم ، ونصرة أوليائه الصادقين عليهم[1] •

والمثلُ هو الزرع الذي أهلكته الرّيح الباردة ، وهذا الزرع لقومٍ ظلموا أنفسهم فعاقبهم الله بإهلاك زرعهم •

ثمّ تحدّثت الآيات بعد ذلك عن طائفة من الشروط التي يجب على المؤمنين أن يستوفوها حتى يؤيّدهم الله بنصره ، ويبطل أعمال أعدائهم •

ومن هذه الشروط أن لا يتخذ المؤمنون بطانة من دونهم ، ومنها التزام طاعة القيادة ، وعدم التأثر بمطامع الدنيا •

ثم ضرب الله مثلين واقعيين :

الأول : معركة أحد ، وكيف تحوّلت رياح النصر عن المؤمنين ، بسبب إخلالهم بالشروط التي يتوقف التأييد الرّباني الكامل على استيفائها •

الثاني : معركة بدر ، وكيف نصر الله المؤمنين ، وهزم أعداءهم ، هزيمة منكرة، مع أنّ المؤمنين كانوا قليلين جدّاً عدةً وعدداً ، بالنسبة إلى عدوّهم المتفوّق عليهم كثيراً من الناحية المادّية ، ولكن لما أراد الله نصر المؤمنين لم تغن أموال الكافرين ولا جموعهم عنهم من الله شيئاً •

فالنصّ يدور حول بيان إبطال الله عزّ وجل لأعمال الكافرين وإعداداتهم التي يقصدون منها محاربة دين الله ، ومحاربة جنده المخلصين الصادقين المطبقين لشريعته ، تحقيقاً لوعده بنصر أوليائه على أعدائه •

---

(١) يرى جمهور المفسرين أن مثل العاقبة الاخروية لما ينفق الكافرون في الحياة الدنيا ، كالزرع الذي تهلكه الريح الباردة ، فلا تبقي منه شيئاً ، وكذلك الكافرون لا يستفيدون من اعمالهم شيئاً يوم القيامة ، ولو كانت في الخيرات والصالحات ، لأنّ كفرهم بالله يحبطها ويبطلها ، إلاّ انني ارجّح انّ المراد خيبة اعمالهم في الدنيا لمحاربة الله ورسله واوليائه ، ما وجد لدين الله انصار مخلصون مطبقون لشريعته ، فالسياق يدلّ على هذا .

والنصّ يطمئن قلوب المؤمنين من جهة ، ويلوّح للكافرين مهدداً بإفساد إعدادهم وتدمير ما يجمعون لمحاربة دين الله ، ومحاربة أوليائه ، فما ينفقونه في الحياة الدنيا لدعم قضية الكفر ، إذا شاء الله أهلكه ودمّره ، كما يبعث ريحاً باردة على حرث قومٍ ظلموا أنفسهم فتهلكه .

تحليل المثل :

آ ـ يلاحظ أنّه لم يعرض من صورة الممثّل له إلاّ مقطع واحد ، وهو : « ما ينفقون في الحياة الدنيا » .

وهذا المقطع يستلزم ما وراءه حتى النتيجة ، فهو المقطع الأول من صورة الممثّل له .

ب ـ ويلاحظ في صورة المثل أنه قد حذف منها المقطع الأول ، وعُرض المقطع الأخير ، والمقطع الأوّل المحذوف هو : قوم حرثوا أرضاً وزرعوها ، فأنبتت لهم نباتاً حسناً ، ولم يبق عليهم إلاّ أن يجمعوا نتاجها . والمقطع الأخير المذكور هو : ريح فيها بردٌ شديد ، أصابت الحرث فأهلكته .

جـ ـ ولمّا قامت صورة المثل مقام صورة الممثّل له ، جاء البناء على المثل والحكمُ عليه كأنه عين الممثّل له ، فقال تعالى عقب ذلك مباشرة : « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » .

وقد يقال : هذا البناء صالح للمثل والممثل له معاً .

د ـ من الدّقة في التعبير ما نلاحظهُ من القيد في المثل ، الذي يدلّ على أنّ إهلاك الزرع بالريح الباردة إنّما جاء لحرث قوم ظلموا أنفسهم ، ولم يأت لحرث قوم أراد الله أن يمتحنهم بالمصيبة ، وهذا القيد يتممّ التطابق في عناصر التماثل بين المثل والممثّل له .

٤ ــ وقال الله تعالى في سورة (هود) :

[الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونهـا عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون (١٩) اولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب . ما كانوا يستطيعون السّمع وما كانوا يبصرون (٢٠) اولئك الذين خسروا انفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون (٢١) لا جرَم أنهم في الآخرة هم الأخسرون (٢٢) إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات واخبتوا إلى ربّهم اولئك اصحاب الجنّة هم فيها خالدون (٢٣) مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع . هل يستويان مثلاً ؟! افلا تذكّرون ؟! (٢٤)] .

(أخبتوا إلى ربهم) : أي خشعوا واطمأنت قلوبهم ونفوسهم إلى ربّهم .

في هذا النص تمثيل الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله بالأعمى والأصم ، وتمثيل الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم بالبصير والسميع .

وذلك لأن الكافرين صرفوا أبصارهم عن رؤية آيات الله ، وتراكبت عليها غشاوة أهوائهم وشهواتهم ورغبات متاع الحياة الدنيا . وصرفوا أسماعهم عن تفهّم كلام الله وكلام رسوله ، وتراكبت عليها غشاوة أهوائهم وشهواتهم ورغبات الحياة الدنيا . فكانوا بسبب ذلك كمن هو مصاب بالعمى والصمم .

أما الذين آمنوا فقد رأوا آيات الله فانتفعوا بها وآمنوا بربهم ، وتدبروا كلام الله وكلام رسوله ، ففهموا وانتفعوا واستجابوا ، فمثلهم بالنسبة إلى هذا القسم من المعارف الربانية كالبصير حديد البصر والسميع شديد السمع .

وقد كثر في القرآن تمثيل الكافرين بالعُمْي الصم ، وتمثيل المؤمنين المهتدين بمن هو بصير سميع ، وفي بعض النصوص لم يصرح باللفظ الذي يدل على التمثيل.

تحليل المثل :

أ ــ من الملاحظ في هذا المثل دقة التصوير، وصدق المماثلة بين المثل والممثل له.

ب ــ في هذا المثل تمثيل شيءٍ معنوي بشيءٍ مدركٍ بالحس الظاهر .

٥ ــ وقال الله تعالى في سورة (الرعد) :

[انزل من السماء ماءً فسالت اودية بقدرها . فاحتمل السيل زبداً رابياً . ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبدٌ مثله . كذلك يضرب الله الحقَّ والباطل . فاما الزبد فيذهب جفاءً . واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال (١٧)] .

(أودية بقدرها) : أي وديان بقدر استيعاب كل منها .

(زَبَداً رابياً) : الزَّبَدُ ما يحتمله السيل من شوائب . رابياً : نامياً .

(ومما يوقدون عليه في النار) : أي المعادن وأشباهها .

(ابتغاءَ حلية أو متاع) : الحلية : اسم لكل ما يتزين به من مصاغ الذهب والفضة . والمتاع : ما ينتفع به في البيوت من آنية وأوعية .

(كذلك يضرب الله الحق والباطل) : أي يضرب مثل الحق والباطل .

(فيذهب جفاءً) : أي يذهب مضمحلاً متلاشياً لا منفعة فيه ولا بقاء له .

تحليل المثل :

لقد سبق شرح هذا المثل ، ولدى تحليله هنا نلاحظ ما يلي :

أ ــ دقة التصوير ، وصدق المماثلة بين المثل والممثل له .

ب ــ العرض المفاجيء للمثل دون سابق تنبيه إليه .

جـ ــ التصوير المتحرك . والجمع بين مثلين : أحدهما لأهل البوادي والثاني لأهل الصناعات .

د ــ حذف ما يمكن استنباطه من صورة الممثل له . وإبراز المهم من صورة المثـل .

٦ ـ وقال الله تعالى في سورة (النور) :

[الله نور السموات والأرض • مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كانها كوكب دُرّيٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نورٌ على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب اللهُ الأمثالَ للناس والله بكلّ شيءٍ عليم (٣٥)] •

لقد وصف الله نفسه بأنه نور السموات والأرض ، ورجح المحققون من أهل التفسير أن المعنى : الله هادي أهل السموات والأرض ، بما أعطاهم من نور يدركون به المعارف ، وبما أنزل عليهم من آياتٍ مبينات هي نور •

وقد وصف الله القرآن بأنه نور ، فقال تعالى في سورة (النساء) :

[يا ايّها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا إليكم نوراً مبيناً (١٧٤)] •

وهو القرآن •

وقال الله تعالى في سورة (الشورى) :

[وكذلك أوحينا إليك روحاً من امرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء منعبادنا ، وإنك لتهدي إلىصراط مستقيم(٥٢)]•

وقال الله تعالى في سورة (المائدة) :

[يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير • قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين (١٥) يهدي به الله من اتبّع رضوانه سبُل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم (١٦)] •

ويؤيد تفسير : « الله نور السماوات والأرض » بأنه هادي أهل السماوات والأرض ، ما جاء قبل الآية ، وهو قول الله تعالى :

[ولقد انزلنا إليكم آياتٍ مُبيَّنات ومثلاً من الذين خلَوْا من قبلكُمْ وموعظة للمتقين (٣٤)] •

أي أنزل الله هذه الآيات من أجل هدايتكم ، فالمصدر الوحيد للهداية هو الله ، إذ هو نور السماوات والأرض ، أي هادي من فيهما ، واستفيد الحصر من اللزوم العقلي ، ومن هدايته لكم أن أنزل لكم آياتٍ مُبينات هي نورٌ لكم ، لعقولكم وقلوبكم ولأرواحكم •

(مثل نوره) : أي مثلُ ما أنزل عليكم من نورٍ لهدايتكم في آيات كتابه وبيانات شريعته . فهذا النور هو ما ضرب الله له المثل بقوله : « كمشكاةٍ فيها مصباح ، المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دُرِّي » إلى آخر صورة المثل .

وهذا هو الذي يتناسب مع سوابق الآية ولواحقها ، وقد ذكره بعض أهل التأويل ، ونرجّحه ، والله أعلم .

لقد ضرب الله المثل لنور القرآن المعنوي بمصباح أرضي من صنع الناس : ذي نورٍ صافٍ من أية شائبة ، وهذا النور يتلألأ كالكوكب الدري ، والقرآن بالنسبة إلى سائر كلام الله كقطرة من بحر ، وكذلك نور المصباح بالنسبة إلى سائر ما خلق الله من نور في الكون الكبير .

وبهذا نلاحظ انطباق عنصر من عناصر خصائص الأمثال القرآنية ، وهو صدق المماثلة بين المثل والممثل له .

وصدق المماثلة يظهر أيضاً في الصفاء التام الذي وصف الله به نور المصباح ، والزيت الذي يمده ، والزجاجة التي تنشره حتى كأنها كوكب دُرّي ، أي يشبه الدرّ في صفائه ولون نوره ، وأهدأ النور وأجمله هو ذو اللون الدري .

ومن البديع في صورة هذا المثل ما جاء فيها من رسمٍ كاملٍ بلوحة كلامية رائعة :

أ ـ لقد بدأت برسم مكان المصباح ، وهي المشكاة .

ب ـ ثم رسمت زجاجته الدرية المشعة .

جـ ـ ثم انطلقت بحركةٍ سريعة جداً ، فعرضت مشهد الشجرة المباركة التي تمد المصباح بالزيت الصافي ، فهي نابتة في أرض واسعة لا تُحجبُ عنها الشمس عند الشروق ، ولا تُحجبُ عنها الشمس عند الغروب ، فهي لاشرقية تحجبُها جبال الوادي الواقعة في شرقه ، ولا غربية تحجبها جبال الوادي الواقعة في غربه ، وبسبب ذلك تكون الشجرة خضرة نضرة ، صافية الزيت .

د ـ ثم رسمت صورة الزيت ، فأبانت أنه من شدة صفائه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، وصفاء الزيت من الشوائب يعطي نوراً صافياً خالياً من شوائب الظلمة ..

وكذلك نور آيات الله وكلماته .

هـ ـ وتركت الصورة التمثيلية للخيال أن يستكمل بنفسه مشاهد أخذ الزيتون بعد صلاحه ، وعصره في معاصره ، واستخلاص الزيت منه . وقدمت مشهد الزيت الصافي المتلامع ، الذي يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار .

و ـ ولما اجتمع صفاء الزيت ، وصفاء نور المصباح ، وصفاء الزجاجة الدُّرِّيَّة المشعة ، التي تزيد النور وتضاعفه بانعكاساتها ، قال الله تعالى : « نورٌ على نور » .

وهنا نلاحظ أن الممد بالزيت بالغ درجة كماله . والزيت بالغ درجة كماله . والمصباح بالغ درجة الكمال في جوهره ، والقدر المناسب في نسبته . والزجاجة بالغة درجة كمالها في جوهرها ودريتها . أما المشكاة التي هي الكوة التي فيها المصباح فهي المكان الأنسب لوضع المصابيح التي من هذا النوع .

فاللوحة التمثيلية قد استكملت كل عناصرها بدقة تامة ، وهذا يكشف لنا انطباق عنصرٍ آخر من عناصر خصائص الأمثال القرآنية ، وهو دقة التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصورة التمثيلية ، يضاف إلى ذلك بعض الأبعاد المكانية والزمانية . فما أنزل الله من هداية قد جاء من مصدر كامل ، وجاء مدده كاملاً ، وظهر نوره لأهل الأفهام السليمة صافياً ، وقد وضع ضمن كلامٍ بليغ واصل إلى درجة الكمال ، مشعٌ بالنور من كماله ، وقد وضع في المكان المناسب له ، إذ أُنزل على العرب وبلغتهم الدقيقة ، أو وضع في قلب المؤمن يهديه وينير له السبيل .

ز ـ ولما انتهت صورة المثل قال الله تعالى : « يهدي الله لنوره من يشاء » .

وبهذا ينكشف عنصر آخر من عناصر خصائص الأمثال القرآنية ، ألا وهو البناء على المثل والحكم عليه كأنه عين الممثل له ، على اعتبار أن المثل كان وسيلة

لإحضار صورة الممثل له في ذهن المخاطب ونفسه . وعندئذٍ طُويت صورة المثل ، وبرزت توابع الممثل له فجأة ، وكأن معنى التمثيل تلاشى ، وظهرت حقيقة الممثل له ظهوراً تاماً ، فحسن استغلال المشاعر النفسية لترتيب النتيجة المقصودة بالذات ، فقال الله تعالى : « يهدي الله لنوره من يشاء » .

فمن استجاب لدعوة الإيمان ، وتدبر آيات الله بصدق ، وكان من طلاب المعرفة، ظهرت له أنوار المعرفة الربانية من كتابه .

ح ــ ومن البديع في اللوحة التمثيلية أنها أتمّت الصورة فرسمت البيوت التي توضع فيها هذه المصابيح ، ورسمت من في هذه البيوت من الناس .

أما البيوت فهي بيوت العبادة لله تعالى ، التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . وأما من فيها فهم رجالٌ يسبّحون الله فيها بالغدوِّ والآصال ، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله .

ومن الرائع في هذه التتمة أن المتنفعين بمصباح المثل هم الذين ينتفعون بما أنزل الله من نور في كتابه وآياته ، إنهم أهل بيوت الله والذكر والصلاة والزكاة ، وهم طلاب الآخرة والثواب الجزيل عند الله . فمثل آياته لهم كمثل المصباح الذي وصف لهم إذا كان في بيوت عبادتهم لربهم . وقد جاء المثل كذلك ليكون ذا مضمون توجيهي يجمع تصورات المخاطب في دائرة ما ضرب له المثل .

* * *

٧ ــ وقال الله تعالى أيضاً في سورة (النور) :

[والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه . والله سريع الحساب (٣٩) أو كظلمات في بحرٍ لجّيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب . ظلمات بعضها فوق بعض إذا اخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور (٤٠)] .

(كسراب) : السراب : هو ما يراه المسافر في الصحراء من بعيد مِثلَ المـاء في وسط النهار ، وما هو بماء ، إنّما هو انعكاسات من أشعة الشمس ، إذا جاءها الوارد لم يجدها شيئاً ، وظهر له أنّها كانت سراباً .

(بِقِيعةٍ) : القيعة والقاع : ما استوى من الأرض .

(في بحرٍ لُجّي) : اللّجّي : هو المنسوب إلى اللّجّة ، واللّجّةُ مـن البحر ما كان منه عظيماً عميقاً ، وهي أواسطه . أي في بحرٍ عظيم عميق .

(يَغْشَاه موجٌ) : أي يعلوه موج .

(إذا أخرج يده لم يكد يراها) : أي لم يقرب من رؤيتها فضلاً عن أن يراها وكثيراً ما يستعمل العرب مثل هذه الصيغة بمعنى فعل بعد شدّة وإبطاء ، ومنه قوله تعالى : « فذبحوها وما كادوا يفعلون » أي فعلوا بعد إبطاء . فيصح في استعمال العرب أن تقول : ما كاد فلان يقوم ، بمعنى قام بعد إبطاء ، إلا أن أصـل تركيب الكلام يدلّ على نفي المقاربة ، وهو أبلغ من نفي الفعل ، وهو المعنى الأول الذي نفهم بموجبه : « إذا أخرج يده لم يكد يراها » . ولعلّ العرب في الاستعمال الثاني لاحظوا تسليط النفي على الفعل بعد (كاد) ، لا على فعـل (كاد) ففهموا المعنى الثاني ، فكأنهم يقولون في « ما كاد فلان يقوم » : « كاد فلان أن لايقوم » وهذا مما خرج عن أصل وجه تركيب الكلام ، إلا أنه استعمال شائع عند العرب في هذه اللفظة .

الشرح :

بعد المثل الذي ضربه الله لنوره في الناس ، بمشكاة فيها مصباحٌ ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنّها كوكب دُرّي ، إلى آخر صورة المثل الذي سبق شرحه . ضرب الله مثلاً آخر مقابلاً له ، مثّل فيه أعمال الذين كفروا .

إن المثل السابق مثل لهداية الله في الناس ، وهو النور المعنوي الذي ينبعث من كتابه وبيانات شريعته ، فانتفع به المؤمنون ، إذ كان هادياً لهم ، فصلحت أعمالهم ،

واستقاموا على الطريقة ، وظفروا بالثواب الجزيل والفضل الجميل من الله تعالى ، وكان عرض هذا المثل مبتدئاً بتمثيل نور الهداية الربانية للناس ، ومنتهياً ببيان العاقبة الحسنى لمن انتفع به وعمل بهـداه . وضَرْبُ هذا المثل اقتضى ضَرْبَ مثـل آخر لمن أعرض عن نور الهداية الربانية ، وذهب في صحراء حياته يلتمس سعادته بوسيلة أخرى ، هذا ما تقضي به حكمة التقابل بين الأضداد ، وهو الأمر الذي درج عليه الأسلوب القرآني في بياناته .

واقتضت بلاغة التنويع في حركة رسم الصورة أن يأتي المثل هنا مبتدئاً بتمثيل عاقبة أعمال الذين كفروا ، ومُثَنِّياً بتمثيل تخبّطهم في الضـلالة ، وهم يقومون بالأعمال التي يرجون منها سعاداتهم : أما نتيجة سعيهم لتحصيل سعاداتهم ، فمثلُ نتيجة الساعي إلى سراب وهو يحسبه ماءً . وأمّا تخبُّطهم في الضلالة إذْ أعرضوا عن نور الهداية الربانية الذي هو النور الوحيد في الوجود ، فمثل تخبط من هو في ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ، في بحر لجيٍّ تحيط به المخاوف والمخاطر من كلّ جـانب .

من لم يلتمس نور الهداية الربّانيّة ليهتدي لم يجد بعده في الوجـود نوراً يهديه في الظلمات ، فهُدى الله هو الهُدَى ، وهو الحق وحده ، وليس بعد الحقّ إلاّ الضـلال .

وفي تدبّر المثل وتحليله نلاحظ أنّه اشتمل على صورتين تمثيليتين :

الصورة الأولى : صورة السّاعي إلى سراب ، وهو ظمآنُ يحسبُه ماءً ، فلمّا وصل إليه أصابته خيبة أمل قاتلة ، إذْ لم يجده شيئاً .

الصورة الثانية : صورة المتخبّط في الظّلمات المتراكمة .

والمثل بصورتيه يحكي واقع حال الكافرين ، سلوكاً في الحياة ، وخيبةً مهلكة في العـاقبة .

إنّ الكافرين أعرضوا عن نور الله الذي هو المصدر الوحيد للهداية ، وانطلقوا يلتمسون أسباب سعادتهم في ظلّمات الهوى والشهـوات والجحود والكنود ، والكبر والفجور ، فأخذوا يتعثّرون في كلّ وادٍ من الهمّ والحزن والقلق وضيق

الصدر وألوان الخيبة ، ويتجدد عندهم الأمل فيكررون المسعى ، وهكذا ، حتى تأتيهم مناياهم وهم ظامئون للظفر بسعاداتهم ، ولكنهم لايجدونها ، وعندئذٍ يرون أن الدنيا التي سعوا وراءها بمثابة سرابٍ خادع ، وعندئذٍ يجدون أنفسهم بين يديْ ربّهم يحاسبهم على أعمالهم ، ليجازيهم بالعدل .

هذا ما يحكيه المثل بصورتيه :

أما الصورة الأولى : فيقول الله تعالى فيها : « والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » .

في صورة هذا المثل تمثيل أعمال الذين كفروا في الحياة الدنيا . وعلينا أن نفكر في هذه الأعمال من عدّة وجوه :

أ ــ في العمل نفسه .

ب ــ في الغاية منه .

جـ ــ في الفكرة التي جعلت هذا العمل سبباً لتحقيق الغاية منه .

أمّا الغاية التي يسعى إليها الكافرون بعد أن رفضوا نور الهداية الربّانية وكذّبوا باليوم الآخر ، فهي تحقيق السعادة لأنفسهم عن طريق متاع الحياة الدنيا ، وقصروا همّهم على طلب ما في هذه الحياة من متعٍ ولذّات .

وأمّا مخطط العمل الذي رسموه لأنفسهم لتحقيق هذه الغاية ، فلا يعدو اتّخاذ الوسائل لكسب المال ، أو الظفر بالجاه أو السلطان ، أو الاستمتاع بالشهوات واللّذات ، أو اللهو واللّعب ، أو السّبق فيما يستعلون به ويفتخر به بعضهم على بعض .

وأمّا العمل نفسه فالكدح الدائم المتواصل .

ولكنّهم يكدحون للظفر بالسّعادة التي ينشدون ، فلا يصلون ، لأنّ لذات الحياة كلّها غير قادرة على منح السعادة الحقيقية ، على أنّ القليل منها لا يأتي إلاّ

مقروناً بالمنغّصات والأكدار ، فيا خيبة المسعى !! إنّ سعيهم وكدحهم كساعٍ إلى سراب في صحراء ، وهو شديد الظمأ ذو حاجة ملحة إلى المـاء . وإذا كان مكان السّراب نهاية مسعى هذا الظامىء المسافر في الصحراء ، وقد ينتهي عنده صبره ، فيقع فيه صريعاً هالكاً ، فإنّ نهاية مسعى الكافر الكادح لتحقيق سعادته في ظروف الحياة الدنيا نزول المنيّة به ، وعندئذٍ يلقى الله ربّه ، فيحاسبه ويوفّيه حسابه ، ويلقى بكفره عذابه .

وفي هذا المثل الرائع يظهر لنا من خصائص الأمثال القرآنية صدقُ المماثلة بين المثل والممثل له . ويظهر لنا أيضاً عنصر البناء على المثل والحكم عليه كأنه عين الممثّل له ، على اعتبار أنّ المثـل كان وسيلة لإحضار صورة الممثّل له في ذهن المخاطب ونفسه ، وإذْ حضرت صورة الممثل له حسن طيّ المثل . وهذا ما نلاحظه في قوله تعالى : « ووجد الله عنده فوفّاه حسابه » بعد قوله تعالى : « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » .

فالنص ينتقل بشكل مفاجىء من المثل إلى الممثل له ، ويأتي ترتيب النتيجة المقصودة على المثل كأنه عين الممثّل له .

ويظهر لنا أيضاً من الخصائص حذف مقاطع من الصورة التمثيلية اعتماداً على ذكاء أهل الاستنباط ، وكذلك حذف مقاطع من الممثّل له .

ففي المثل أبرزت صورة السراب ، ثمّ صورة الظامىء الذي ظنّه ماءً ، ثم خيبته عند وصوله إليه ، وحذف ماعدا ذلك لأنّ الخيال يُتمّ رسمها .

وفي الممثّل له لم يذكر إلا عمل الذين كفروا ، وطوي ماعدا ذلك ، لأن الفكر قادر على أن يستدعيه ، وهذا من بلاغة القرآن .

وأمّا الصورة الثانية : فيقول الله تعالى فيها : « أو كظلمات في بحرٍ لجّيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلماتٌ بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها » .

فهـذا المثل يصور الحالة النفسية والفكرية والقلبيـة للذين كفروا بعد أن تركوا نور الهداية الرّبّانية .

إنّهم يطلبون سعادتهم في الظلمات ، فقلوبهم مظلمة بالكفر ، ونفوسهم تائهة في بحرٍ لُجّيّ من ظلمات الأهواء والشهوات ، وأفكارهم تسبح في ظلمات أسباب لذّات الدنيا ، وإراداتهم تحت كلّ هذه الظلمات .

فمثلهم كمن هو في ظلمات قاعِ بحرٍ عميق ، فوقه أمواج" في العمق تزيد الظلمة ، فوقها أمواج في السطح تضاعف الظلمة ، فوقها سحاب" يزيد الظـلام ظلاماً ، ظلمات" بعضها فوق بعض .

إذا أخرج يده لم يكد يراها : أي لم يرها ولم يقارب رؤيتها لشدة الظلمة .

ومن كان كذلك فـلا بدّ أن يسلك مسالك المهالك ، وكذلك حـال الذين كفروا في أعمالهم ، وفي تحديد الغاية من أعمالهم ، وفي ما يقرّرون من أسبـاب لذلـك .

ولمّا حضرت صورة الممثّل له عن طريق المثل ، حَسُنَ طيّ المثل ، والبناء عليه كأنه عين الممثّل له ، فقال الله تعالى : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نـور » .

فمن لم يستنر بنور الهداية الربّانية ،فلا جرم أن يتيه في الظلمات ، ويضلّ ضلالاً بعيداً ، ويخيب مسعاه .

وهكذا يظهر لنا في هذا المثل من خصائص الأمثال القرآنية ما يلي :

أ ــ صدق المماثلة بين المثل والممثل له .

ب ــ البناء على المثل والحكمُ عليه كأنه عين الممثّل له .

جـ ــ دقّة التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصورة التمثيلية .

د ــ التصوير المتحرك الحيّ الذي تبرز فيه المشاعر النفسية .

هـ ــ حذف مقاطع يستطيع الذكي أن يستوعبها ويتخيلها بذكائه .

إلى غير ذلك من أمور يكشفها المتأمل الباحث .

- ٣ -

جدول خصائص الأمثال القرآنية

← الأولى ـ دقة التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصورة التمثيلية .

← الثانية ـ التصوير المتحرك الحيّ الناطق ، ذو الأبعاد المكانية والزمانية ، والذي تبرز فيه المشاعر النفسية والوجدانية والحركات الفكرية للعناصر الحية في الصورة .

← الثالثة ـ صدق المماثلة بين المثل والممثّل له .

← الرابعة ـ التنويع في عرض الأمثال ، مرّة بالتشبيه ، ومرّة بالعرض المفاجىء ، وبالتمثيل البسيط ، واخرى بالتمثيل المركب الذي يطابق كلّ جزء منه جزءاً من الممثل له ، واخرى بالتمثيل المركب الذي ينتزع منه وجه الشبه بنظرة كلية عامة .

← الخامسة ـ البناء على المثل والحكم عليه كأنه عين الممثّل له ، على اعتبار أنّ المثل كان وسيلة لاحضار صورة الممثّل له في ذهن المخاطب ونفسه، وإذْ حضرت صورة الممثّل له ولو تقديراً ، فالبيان البليغ يستدعي تجاوز المثل ، ومتابعة الكلام عن الممثل له ، وتسقط صورة المثل لتبرز القضايا المقصودة .

← السادسة ـ قد يحذف من المثل القرآني مقاطع ، اعتماداً على ذكاء اهل الاستنباط . وقد تحذف من الممثل له مقاطع ايضاً ، ويبقى في دلالات الألفاظ أو لوازم المعاني ما يدل على المحذوف .

الفصْل الخامِس

تطبيقَات عامَّة

تطبيقات عامة

في هذا الفصل تطبيقات عامة على طائفة من النصوص القرآنية التي اشتملت على أمثال .

وفي هذه التطبيقات عمدت إلى تفسير النصّ القرآني مستهدياً بما ذكره المفسرون ، وبقواعد التدبّر التي انتهيت إليها بعد تأمل طويل في كتاب الله ، وهي التي دونتها في كتابي « قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عز وجل » .

وعمدت أيضاً إلى تحليل الأمثال ولفت النظر إلى ما جاء فيها ، وفق ما سبق أن انتهيت إليه في هذه الدراسة للأمثال القرآنية ، وهو ما جاء في الفصول السابقة :

١ ـ التعريفات .

٢ ـ أقسام الأمثال .

٣ ـ أغراض الأمثال القرآنية .

٤ ـ خصائص الأمثال القرآنية .

ولدى التحليل في هذه التطبيقات قد لا أستوفي ذكر كلّ العناصر الذي اشتمل عليها المثل ، أقساماً وأغراضاً وخصائص ، لأترك للقارىء فرصة التأمل الحر ، واستكمال ما أغفلته ، وقياس ما لم أذكره على ما ذكرته ، فالتدريب والتأمّل يسمحان باستنباط أمور جديدة لم يصل إلى استنباطها المتأمل السابق ، ولم يتنبّه إليها ، وبهما يظهر من سنة الله في خلقه سنة التكامل المتلاحق .

— ١ —

يقول الله تعالى في سورة (الرعد) :

[له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلاّ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال (١٤)] .

في هـذا النصّ القرآني تمثيل دعاء الكافرين الذين يدعون مـن دون الله ويرجون من دعائهم خيراً لهم ، بمن يبسط كفّيه من بعيد إلى الماء ليبلغ فاه ، ثم لا يستخدم وسيلة صحيحة ينقل بها الماء إلى فمه ، فهل ينفعه عمله شيئاً ؟

كذلك الذين يدعون من دون الله لا ينفعهم دعاؤهم شيئاً .

تحليل المثل :

١ ــ يلاحظ في هذا التمثيل أنه من قبيل التمثيل البسيط ، فالممثّل به : إنسانٌ باسط كفيه إلى الماء عن بعد ليبلغ فاه ، دون أن يتخذ الوسائل الصحيحة التي توصل الماء إلى فيه .

وقد يقال : هو من التمثيل المركب إذا جزأنا العناصر ، فجعلنا وقوف الانسان بعيداً عن الماء جزءاً من الصورة ، وبسط يديه جزءاً آخر ، والماء جزءاً ثالثاً ، ورغبة هذا الانسان أن يبلغ الماء إلى فِيهِ جزءاً رابعاً .

وعلى هذا يمكن إجراء التقابل الجزئي بين عناصر المثل وعناصر الممثل له . فدعاء الداعي الذي يدعو مـن دون الله كبسط الكفين لطالب المـاء ، وما يرجوه من أوثانه كالماء الذي يطلبه الظامىء باسط كفيه ، وحاجته النفسية كحاجة الظامىء ، وعدم تحقق المطلوب للداعي كعدم تحقق الوصول إلى الماء بالنسبة إلى باسط كفيه إلى الماء عن بعد .

٢ ــ وهـذا التمثيل من قبيل تمثيل مدرك بالحسّ الظاهر ومدرك فكري ووجداني ، بمدرك بالحسّ الظاهر ومدرك وجداني ، فهـو من قبيـل الصورة التمثيلية المختلطة .

٣ ـ والصورة التمثيلية في هذا المثل صورة منتزعة من الخيال ، إذْ لا نجد إنساناً سوياً أو غير سوي يقف عن بعد عن الماء ويبسط كفيه إليه ليبلغ فاه •

٤ ـ والغرض من هذا المثل ـ مع تقريب صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب ـ التنفيرُ من دعاء غير الله، والاقناعُ بلفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة•

٥ ـ ومن الواضح في هذا المثل دقةُ التصوير ، مع إبراز العناصر المهمّة من الصورة التمثيلية • وصدقُ المماثلة بين المثل والممثل له •

والتنويع في عرض المثل ، فقد جاء هنا عقب استثناء يشعر في مقدمته بحصول شيء من الاستجابة ، فإذا بالمثل يؤكد في مضمونه عدم حصول أيّ مقدارٍ من الاستجابة •

ودقة التصوير تظهر لنا حينما تتابع الصورة التمثيلية ، فنشاهد في لوحتها إنساناً مندلع اللّسان من شدّة الظّمأ ، تبدو عليه علامات البلاهة ، واقفاً على شفا بئر فيها ماء ، باسطاً كفّيه في اتجاه الماء ، يدعوه ويرجوه أن يأتي إلى فمه ليشرب منه ويروي ظمأه ، ويظل على هذه الحال دون أن يتخذ الوسائل التي تنفعه ، فلا الماء بالغ إلى فمه ، ولا هو عائد إلى رشده •

هذه اللّوحة التمثيلية تصوّر بلاهة الرجل ، وخيبة مسعاه ، وتعريض نفسه للهلاك ، وهو يظنّ أنّه يفعل شيئاً لنجاته ، أو لتحقيق مطالبه •

وكذلك حال الذين يدعون من دون الله ، إنّهم يرجون مطالب حياتهم ممّا اتخذوه شركاء لله ، أو يرجون نجاتهم منهم ، وهم لا يجلبون لهم نفعاً ، ولا يدفعون ضرّاً ، فيقفون لشركائهم متوسّلين داعين ، ولا يتخذون الوسائل الحقيقية التي تنفعهم ، فتنتهي قصة حياتهم بالخيبة ، ويثبتون على أنفسهم أنّهم كانوا بُلْهاً ، وأنّهم خسروا أنفسهم بحماقتهم ، كما فعل ذلك الأبله الظامىء إذْ بسط كفّيه إلى الماء داعياً ليبلغ فاه •

ولا يخفى علينا أنّ بعض ما طوي في اللفظ من المثل من السهل استكماله ، إذ يستدعيه التصوّر الذكي •

٦ ــ ولمّا انتهى عرض لوحة المثل طويت واستمرّ النصّ يبني على ما يستدعيه الممثّل له ، فقال الله تعالى : « وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال » •

وهذا كما عرفنا من خصائص الأمثال القرآنية ، إذْ قد تعرض صورة المثل ، ثم تطوى ، ويستمرّ النصّ بانياً القضايا على ما كان قبل المثل ، أو بانياً القضايا على الممثّل لــه •

ــ ٢ ــ

وقال الله تعالى في سورة (الأنعام) :

[قل : أندعو من دون الله مالاينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذْ هدانــا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران ، له أصحابٌ يدعونه إلى الهُدى ائتنا. قل : إنّ هدى الله هو الهدى ، وأُمِرْنا لِنُسلمَ لربِّ العالمين (٧١)] •

هذه الآية تعلّم الرسول والمؤمنين جوابــاً إقناعيــاً للمشركين ، إذْ يدعون المؤمنين إلى الايمان بشركائهم ، أو إلى عبادة شركائهم ، أو إلى رجعة من آمن منهم إلى ما كان عليه قبل الإيمان •

والجواب يتلخّص بحجّة برهانية جــاءت على طريقة الاستفهام التعجّبي ، وبتصوير الأخذ بمذهب الشرك بأنه رجعةٌ على الأعقاب إلى هاوية الهلاك ، بعد الهداية إلى صراط الله ، وبتصوير الدعوة إلى ذلك بأنّه ردّ على الأعقاب لمن هداهم الله ، ثم بتقديم هذه الصورة في لوحة تمثيلية •

تحليل المثل :

١ ــ أوّل ما تبرزه اللّوحة التمثيلية في هذا المثل صورة إنسانٍ يهوي إلى هاوية سحيقة مهلكة ، فهو يخطو في منحدرٍ إلى أسفل ، ثم تبرزُ أشباح شياطين من أسفل منه يستهوونه ، أي يستدرجونه إلى الهاوية ، إذْ يزيّنون ذلك لهوى نفسه ، وهنا ترسم الصورة بعض ما تهوى نفوس أهــل الانحــدار ، ثمّ تكشف الصورةُ مشهد تحيّر الرجل في ذات نفسه •

لماذا هو حيران ؟

هنالك في أعلى الصورة وعلى القمّة صراط مستقيم ، فيه نور وهداية ، فيه طمأنينة وسلامة ، غايته نجاة" ونجاح وفـلاح ، وعلى الطريق أصحاب" ناصحون مخلصون للرجل ، ينادونه : ائتنا وإيّاك أن تضلّ ، وإيّاك أن يستدرجك الشياطين إلى هلاكك .

فهو لذلـك حيران ، هل يستجيب لأصحابه المخلصين الناصحين ؟ أو يرضي أهواء نفسه وشهواتها العاجلة ويستجيب لدعوة الشياطين ، وربّما كان من وراء ذلك هـلاكه ؟.

وفي ظـلال الصورة التمثيلية ما يدلّ على أنه كان مـع أصحابه سائراً على الصراط ، إلاّ أنه عدل عنه منحدِراً ، استجابة لاستهواء الشياطين له ، فهو مرتدٌّ على عقبيـه .

٢ ــ ما أروع هذه الصورة التمثيلية المنتزعة من الواقع الحسّي ومن الخيال . إنّها تماثل بصدقٍ تامّ من يرتدّ عن صراط الايمان واليقين بالله واليوم الآخر ، إلى هاوية الكفر بالله أو الشرك به ، وإلى حـالة القلق والحيرة والخوف من المصير ، وشياطين الشر والضلال يستهوونه بزينة الحياة الدنيا وشهواتها .

٣ ــ في هذه الصورة التمثيلية معظم خصائص الأمثال القرآنية ، ففيها دقّة التصوير مع إبراز العناصر المهمّة من الصورة . وفيهـا التصوير المتحرّك الحيّ الناطق الذي تبرزُ فيه المشاعر النفسيّة والوجدانية والحركات الفكرية . وفيهـا صدق المماثلة إلى ما يقرب من التطابق . وفيها حذف ما يمكن استدعاؤه واستكماله بمقتضى اللّزوم الذي يدركه الذهن .

٤ ــ ويبدو أنّ الغرض من هـذا المثل التحذير من الرّدة مـن استهواء الشياطين ، مع الاقناع بلفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة لها .

٥ ــ ولمّا انتهت الصورة التمثيلية وحققت أغراضها طُويت واستمرّ النص يبني على الممثّل له ، أو على ما قبل المثل ، كأنّ المثل قد جاء معترضاً شفّافاً غـير حاجز ، يُرى منه الممثّل له ، فقال الله تعالى : « قل : إنّ هدى الله هو الهدى ،

وأُمِرنا لنُسلم لربّ العلمين » أي أمرنا بالايمان بالله وحده لاشريك له ، لنُسْلِم قلوبنا ونفوسنا وأهواءنا وإراداتنا لله ربّ العالمين ، خالقنا ورازقنا ومربينا ومحيينا ومميتنا ، ومبتلينا بالعدل والفضل بقدرته ، على وفق علمه وحكمته ، فلا نعبد أحداً سواه .

- ٣ -

وقال الله تعالى في سورة (الحج) :

[ومن يشرك بالله فكانما خرّ من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق (٣١)] .

في هذه الآية تمثيل لانتكاس الإنسان بشركه بالله ، وسقوطه السّريع على رأسه ، من سماء عبوديته للرّبّ الأعلى وشرف هذه النسبة ، إلى أسفل سافلين ، إلى مكان تمزّقه وسحيق هلاكه .

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ، ورفعه بالتكوين إلى مرتبة عبوديته له ، وتحرره من العبودية لمن سواه ، فإذا اختار الإنسان بإرادته أن يشرك بربه ، أي أن يجعل نفسه عبداً لبعض ما خلق الله ، أو لبعض من خلق ، فقد أسقط نفسه من مرتبته ، وبسقوطه انتكس على رأسه ، فخرّ من مرتبة السموّ ، وهوى إلى سحيق مهلك ، ونفسه في سقوطه تتمزّق من كلّ جانب ، لأنه لا يجد الطمأنينة ، ولا سعادة الحياة الدنيا فيما هو فيه من شرك ، ثم إذا انتهت حياته ووافته منيته لقي حسابه وعذابه عند ربه .

فما جاء في المثل يحاكي محاكاة تامّة هذا الواقع .

إنّ من أشرك بالله مثله كمثل من خرّ من السماء ، فتخطفه الطير ، وهذا تصوير لحالة التمزّق النفسي الذي يعتري المشرك بربّه ، أو تهوي به الريح في مكان سحيق . وتصوير للنهاية التعيسة التي ينتهي إليها المشرك . فحالة المشرك في شركه تشبه حالته لو أنه خرّ من السماء فتخطفه الطير من كلّ جهة ، ثمّ هوت به الريح في مكان سحيق .

تحليل المثل :

١ ــ في هذا المثل تمثيل أمر معنوي بمدرك بالحسّ الظاهر •

٢ ــ صورة هذا المثل صورة منتزعة من الواقع والخيال معاً •

٣ ــ في هذا المثل دقة التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصورة التمثيلية ، وترك الباقي ليستكمله ذهن المخاطب •

٤ ــ في هذا المثل التصوير المتحرك الحيّ ، الذي تبرز فيه المشاعر النفسية •

٥ ــ في هذا المثل صدق المماثلة بين المثل والممثل له •

٦ ــ يبدو أن الغرض من هذا المثل تقريب صورة الحالة النفسية التي يكون عليها المشركون ، والتعريف بحقيقة انتكاسهم ، والتنفير الشديد من الشرك •

ــ ٤ ــ

وقال الله تعالى في سورة (الأنعام) :

[فمن يُرد الله ان يهديه يشرح صدره للإسلام • ومن يرد ان يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرَجاً كانما يصّعّد في السماء • كذلك يجعل آلله الرجس على الذين لا يؤمنون (١٢٥)] •

في هذه الآية يمثّل الله ضيق الصدر المعنوي الذي يصيب الذين لا يؤمنون حينما يدعَوْن إلى الاسلام ، ويهدَون إلى أن يسمُوا إليه ويرتفعوا عن الإخلاد إلى الأرض ، بضيق الصدر المادّي الذي يحصل لمن يصّعد في السماء ، إذْ تتناقص عليه في الطبقات العليا من الجوّ نسبة الأكسجين اللازمة لتنفّسه ، فيضيق صدره ويكاد يختنق شيئاً فشيئاً كلّما ارتفع صاعداً •

وكذلك الذي عرض عليه الإيمان الحقّ فلم يؤمن بالله واليوم الآخر ، فإذا دُفع به صُعوداً إلى الاسلام الذي هو التطبيقات السلوكية لما يوجبه الإيمان ، فإنّه يجد صدره ضيّقاً حرجاً ، نافراً من التطبيقات الاسلامية التي لم يؤمن بجدواها ، ويكاد يختنق إذا ألزم بها ؛ لأنه يشعر بأنّ إرادته مقيّدة غير حرّة ، وبأنّ أهواءه محبوسة محجورٌ عليها •

تحليل المثل :

١ ــ نلاحظ هنا تمثيل ضيق الصدر بسبب نفسي هو الكفر ، بضيق الصدر بسبب نقص الهواء وقلة كمية الأكسجين فيه •

٢ ــ صورة هذا المثل صورة منتزعة من الواقع ، إلاّ أنّ هذا المثل لم يكن معروفاً للناس عند نزول النصّ • لقد كان بالنسبة إليهم أمراً من أمور الغيب ، ولمّا اكتشف الناس هذه الحقيقة بعد صعودهم إلى طبقات الجوّ العليا ظهرت إحدى معجزات القرآن العلمية •

٣ ــ إنّ التماثل بين المثل والممثل له قد بلغ من الدقة حدّاً قريباً من التطابق ، فالاسلام في مكان السموّ المعنويّ ، والإقبال عليه صعود ، فهو يماثل من يصعّد في طبقات الجوّ •

إلاّ أن المؤمن يحمل نسمات الحياة في قربة إيمانه فلا يضيق صدره بل ينشرح للإسلام ، بخلاف الكافر فانّ الصعود إلى الاسلام يجعل صدره ضيّقاً حرجاً لأنه لا يحمل نسمات الحياة معه •

٤ ــ في هذا المثل التصوير المتحرّك الحيّ ، الذي تبرز فيه المشاعر النفسية •

٥ ــ في هذا المثل صدقُ المماثلة بين المثل والممثّل له •

٦ ــ يبدو أنّ الغرض من هذا المثل تقريب صورة الممثل له ، بأمر يمكن أن يحسّ به الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، فضيق الصدر من نقص الهواء من الأمور التي يشترك الناس جميعاً بالاحساس بها •

بحث اعتقادي حول مضمون المثل :

يستشهد بعض الناس بهذه الآية لتأييد مذهب الجبريين ، الذين يرون أنّ الانسان لا اختيار لـه ، وإنما هو مجبور إما على الإيمان وإما على الكفر إما على الطاعة وإما على المعصية •

وهذا خطأ في التصور ، وعدم بصيرة في فهم النص •

وذلك لأن الله عزّ وجل في كونه الماديّ سنناً وقوانين ، وهذه السُنن والقوانين

مستمرّة بقضاء الله وقدره العام ، لا يتخلّف منها شيء إلاّ بإرادة خاصة ، ولحكمة تقتضي خرق السنّة .

فمن ألقى النار على شيء قابل للاحتراق السريع ، احترق ذلك الشيء بسرعة ضمن سنن الله وقوانينه المستمرّة ، مع العلم بأن الله تعالى لو شاء لم يسمح بحصول هذا الاحتراق ، ولعطّل أثر القانون ، وأوقف تأثير السبب . فالاحتراق أثرٌ من آثار قانونه الذي أوجده هو في طبائع المحترقات ، فهو من فعله تعالى ، ولكنّ الذي ألقى شرارة النار بإرادته من الناس على ما من طبعه الاحتراق في قانون الله ، هو المسؤول عما كسب بإرادته .

ومن نطح الصخرة برأسه نطحاً ينكسر به رأسه ، كسر الله رأسه ضمن سننه الثابتة وقوانينه الدائمة . ولو شاء الله لم يسمح بحصول هذا الكسر ، ولعطّل أثر القانون ، وأوقف تأثير السبب ، ولكن تغيير قوانينه ليس ألعوبة في أيدي اللاعبين . ومسؤولية ناطح رأسه مسؤولية تامّة عن انتحاره بغير إذن من الله ، وتحقق أثر السنة الثابتة تم بخلق الله .

ومن قطع رأس إنسان بالسيف قتل الله به ذلك الانسان ضمن سننه الثابتة وقوانينه الدائمة . ولو شاء الله تعالى لم يسمح بحصول القطع ، ولا بتحقق نتيجة القتل ، ولعطل أثر القانون ، وأوقف تأثير السبب ، كما سيحصل لأفضل الشهداء الذي يتحدّى الدّجال فلا يستطيع الدجال بعد المرة الأولى قتله . ولكنّ الله تعالى لا يجعل تغيير قوانينه وسننه ألعوبة في أيدي اللاعبين .

ونظير هذه السنن والقوانين الكونية الظاهرة ، توجد في طبائع النفوس سنن وقوانين ، فطر الله عليها عباده ، وآثارها تنسبُ إلى الناس كسباً ، ويعتبرون مسؤولين عنها مسؤولية تامّة ، لأنّ كسبها يخضع لاراداتهم الحرّة ، وهي في نتائجها تنسبُ إلى الله خلقاً . فمثلها في الواقع النفسي ، كمثل من يلقي شرارة النار على الزيت فيحترق الزيت بخلق الله ، ضمن سننه الثابتة وقوانينه الدائمة في الواقع الحسّي المشاهد .

وهكذا فمن لم يؤمن بما أوجب الله الإيمان بـه ، أي اختار بارادته الحرّة سبيل الكفر ، لكبر في نفسه ، أو لرغبة بالفجور ، أو لعلة أخرى من علل النفس ، انطبقت عليه من سنن الله وقوانينه في الأنفس ، ظاهرة ضيق الصدر وحرجه ، إذا هو دُعي إلى الاسلام ، أي إلى الاستسلام لأوامر الله ونواهيه ، ولطاعة الله في ذات نفسه وفي ألوان سلوكه .

كيف يقبل الاستسلام لله والطاعة له ، وكيف ينشرح لذلك صدره ، من لـم يخطُ من جهته خطوة الإيمان ؟

إنّ الذي لا يؤمن بمبدأ من المبادىء لا يقبل على فعل مقتضياته إلاّ مكرهاً ، منقبض النفس ، غير منشرح الصدر ، وإذا فعله فإنه يفعله ونفسه منـه في ضيق شديد .

وهذا من طبائع النفوس ، وطبائع النفوس من خلق الله ، وهي من سنن الله وقوانينه ، وهي في النفوس نظير سنن الله وقوانينه الأخرى في طبائع الأشياء .

يوضّح هذه الحقيقة قول الله تعالى في آخر الآية :

« كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » .

أي فرجس ضيق الصدر وعدم انشراحه للإسلام نتيجة طبيعية تقضي بها سنّة من سنن الله في نفوس عباده ، لرفض الإيمان وعدم قبوله ، مع وضوح دلائله .

أمّا من آمن بالله واليوم الآخر ، وصحّ يقينه واطمأنّ قلبه ، فانّه سينشرح صدره للاسلام ، نظراً إلى أنّ الإسلام إنما هو السّلوك الاراديّ الذي يقتضيه الايمان ، ولا يقف دون التطبيق ضيق ولا حرج في الصدر ، وقد يتعثر التطبيق بعقبات الأهواء والشهوات ، إلاّ أنها عوارض نفسيّة ، وليست من معدن الإرادة التي تستمدّ أصل توجيهها من جذر الإيمان .

وهكذا يظهر لنا أن المنطلق الأوّل يبدأ من عند الإنسان ، إذْ يختار بارادته الحرّة سبيل الايمان ، أو يختار سبيل الكفر ، فـان اختار سبيل الايمان انشرح صدره لتطبيقات الاسلام ، وكان ذلك من النتائج الطبيعية التي تقضي بها سنن الله

وقوانينه في نفوس عباده • وإن اختار سبيل الكفر لم ينشرح صدره لتطبيقات الاسلام ، بل كان ضيّقاً حرجاً ، وكان ذلك أيضاً من النتائج الطبيعية التي تقضي بها سنن الله وقوانينه في نفوس عباده •

أمّا قول الله تعالى :

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام • ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً » •

ففهمه يتوقف على تصور كلّ حلقات السلسلة ، من أوّلها حتى آخرها :

الحلقة الأولى : هي إيمان الانسان بارادته الحرّة ، أو كفره •

الحلقة الثانية : من آمن شرح الله صدره للاسلام ، أي للاستسلام والطاعة ضمن سننه وقوانينه التي فطر عليها طبائع النفوس • ومن كفر لم يشرح الله صدره للاسلام كذلك •

الحلقة الثالثة : من أسلم وأطاع هداه الله بارادته ، أي حكم له بالهداية وجعله مهدياً غير ضالّ • ومن لم يسلم لله أضله الله بارادته ، أي حكم عليه بالضلالة ، وجعله ضالاً غير مهدي •

فالحكم من الله بهداية عبد من عباده إرادة ربّانية حكيمة ، مستندة إلى إسلام العبد لربّه بعد إيمانه به •

والحكم من الله بضلال عبد من عباده إرادة ربّانية حكيمة ، مستندة إلى تمرّد العبد على طاعة ربّه بعد كفره بربّه ، أو بوعده ووعيده •

فاذا أردنا أن نبدأ التعبير من آخر السلسلة حتى أوّلها استقام الكلام إذا قلنا كما جاء في الآية :

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام • ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد في السماء • كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » •

فلا دليل في الآية لمذهب الجبريين ، بل هي دليل لمذهب أهل السنة والجماعة • والحمد لله على ما وهب ، ونسأله صحة الفهم ، وحسنَ التبصر ، وحسنَ التدبّر •

وقال الله تعالى في سورة (الحجّ) :

[يا أيها الناس ضُرب مَثَل ّ فاستمعوا له : إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له . وإنْ يسلبهم الذّباب شيئاً لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب (٧٣) ما قدروا الله حقّ قدره إنّ الله لقويّ عزيز (٧٤)] .

في هاتين الآيتين يكشف الله تعالى عجز الشركاء الذين يزعم المشركون أنّهم شركاء لله ، عن أن يخلقوا حيواناً مهما كان حقيراً ، وعجزهم أيضاً عمّا دون ذلك بكثير .

ومن الأمثلة على ذلك هذا الذباب الذي يرونه حيواناً حقيراً ، ولا يقيمون له وزناً ، ويتأذّون منه فيذُبّونه ويقتلونه ويحاولون إبادته ، إنهم لن يستطيعوا أن يخلقوا مثله منفردين ولا مجتمعين « لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » .

وفي هذا تحدّ شامل لكلّ الشركاء ، ومن ورائهم من يعبدونهم من دون الله.

ومن أمثلة عجزهم عمّا هو دون عملية الخلق ، عجزهم عن التحكّم والتصرف بالأشياء الدقيقة الصغيرة جدّاً ، التي يستطيع الذباب أن يحسّ بها ، ويقبض عليها، ويسلبهم إيّاها ، ولا يستطيعون هم أن يُحسّوا بها ، ولا أن يقبضوا عليها ، ولا أن يستنقذوها من الذباب ، لدقتها وصغرها ، وضعف أبصارهم عن رؤيتها ، وضعف حواسّهم عن إدراكها ، وعدم قدرتهم على التحكّم أو التصرف بها « وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » .

إنّ التحدّي بالأمور الصغيرة جدّاً يشبه التحدي بالأمور الكبيرة جدّاً ، فرؤية الذرّة وإخضاعها للتجربة المخبرية أشقّ وأعقد من الوصول إلى القمر ودراسة عناصره وخريطة كُرته . وإنّ صناعة ساعة متقنة صغيرة الحجم بمقدار حبّة الذرة أو حبة القمح أشق وأعقد من صناعة ساعة كبيرة جدّاً تملأ ميداناً كبيراً لمدينة عظيمة .

وقد أعجبني في هذا تنبه ذكره الدكتور مصطفى محمود في بعض أحاديثه «التليفزيونية» استناداً إلى ما توصلت إليه الدراسات العلمية على الذباب،إذ ذكر أن الذباب قد انفرد عن سائر الحيوان بأنه يفرز الهواضم على جزئيات طعامه فيهضمه في مكانه قبل أن يمتصه بخرطومه ، فهو لا يمتصه بخرطومه إلا متحولاً مهضوماً . وبسبب ذلك فإنه متى سلب شيئاً وامتصه فعلاً فقد سلبه متغيراً متحولاً ، تعجز كل وسائل العلماء مهما كانت متقدمة عن استنقاذه منه ، لقد صار مهضوم طعام ذباب، ولم يعد جزيئة من سكر أو دقيق أو دم أو غير ذلك .

فالآية بهذا شاهد من شواهد الاعجاز العلمي في القرآن .

وهكذا فقد تحداهم الله تعالى بالخلق وضرب لهم مثلاً على ذلك عملية خلق الذباب ، وتحداهم بما هو دون عملية الخلق ، وضرب لهم مثلاً على ذلك عجزهم عن استنقاذ ما يسلبهم الذباب من شيء .

فكيف يتخذ المشركون شركاء لله وهي عاجزة هذا العجز الذي يتنافى مع صفتي الربوبية والألوهية ؟!.

إنّ هذا الأمر مرفوض بداهة في منطق التفكير السليم والعلم الصحيح .

فاطلاق المثل في هذا النصّ يراد منه ذكر نموذج لنوع من الأنواع ، وهو هنا نوع الخلق ، ونوع استنقاذ الأمور الدقيقة الصغيرة جدّاً ، والتحكم بها ، ممّا تقدر على التحكّم به حشرات صغيرات من خلق الله .

– ٦ –

وقال الله تعالى في سورة (الملك) :

[أفمن يمشي مكبّاً على وجهه أهدى امّنْ يمشي سويّاً على صراط مستقيم (٢٢)].

(مُكِبّاً) : يُقال لغةً : أكبَّ الرجلُ على وجهه يكِب إكْباباً إذا نَكَّسَ رأسهُ . ويقالُ : أكبَّ الرجل على وجهه إذا سقط على وجهه .

وقد ذكر المفسّرون في تصوير حال من يمشي مُكِبّاً على وجْهِهِ وجوهاً ، منها ما يلي :

أ ــ أنّه الذي يمشي ويتعثّر في مشيه فيخِر على وجهه مُكِبّاً وهكذا دواليك .

ب ــ أنّه المتعسّف الذي يمشي على غير هُدى فلا يعلم له طريقاً .

جـ ــ أنّه الذي انتكس فصار يمشي على وجهه ، بدل أن يمشي على قدميه ، وقامته منتصبة ' سويّة ، يرى طريقه .

د ــ أنّه الذي يمشي مُنكساً رأسه كما يمشي الحمار ، لا كما يمشي الانسان السوي .

ويبدو لي من التقابل المتباين بين من يمشي مكبّاً على وجهه ومن يمشي سويّاً على صراط مستقيم أنّه لا بُدّ من التخالف في الأمور التالية :

١ ــ الثاني يمشي على صراط مستقيم ، بخلاف الأول ، فهو تائه ضالٌ لا يعرف لنفسه طريقاً مستقيمةً واضحة .

٢ ــ الثاني يمشي سويّاً عالماً طريقه مشاهداً له ، بخلاف الأول ، فهو يمشي غير سوي ، وهو مُكبٌ على وجهه لا يرى طريقه .

٣ ــ الثاني يُتابع سيره دون أن يتعرّض إلى عثرات ، لأنه يمشي سويّاً مشاهداًطريقه ، وعلى صراط مستقيم غير متعرّج من ذات اليمين أو ذات الشمال ، وليس في سطحه ارتفاعات وانخفاضات وحفرٌ وعقبات ومساقط . بخلاف الأول ، فهو يتابع سيره في متاهاته فيتعرض إلى عثرات كثيرات ينكب فيها على وجهه ، لأنه يمشي غير سوي ، ولا يشاهد طريقه ، ومتاهاته لا استقامة فيها ، بل هي متعرّجة وفيها ارتفاعات وانخفاضات وحفرٌ وعقبات ومساقط ومزالق .

فأيّ المتقابلين أهدى ؟

سؤال لا يحتاج جواباً لبداهته ، وكذلك فعل القرآن .

ولقد ضرب الله في هذا مثلاً للكافر الذي يسير في حياته على غير هدى ، فهو كالمكبّ على وجهه ، ومثلاً للمؤمن المتقي الذي يسير في حياته على صراط الله المستقيم ، فهو كالذي يمشي سويّاً على طريق مستقيمة .

تحليل المثل :

١ ـ اشتمل النص على مثلين لفريقين متقابلين كلاهما يمشي في الحياة إلاّ أنهما على وصفين متباينين ، أمّا أحدهما فيمشي مشياً سويّاً على هدى وهو المؤمن التقي ، وأمّا الآخر فيمشي على غير هدى مشياً غير سويّ ، وهو الكافر العاصي .

فهو من قبيل تمثيل أمر معنوي بأمر يدرك بالحسّ الظاهر .

٢ ـ إذا حلّلْنا المثل أمكننا أن نجعله من قبيل التمثيل المركّب ، وإذا تتبعنا العناصر أمكننا أن نعتبره من قبيل العناصر المتلاقية التي تقابل أمثالها في الممثَّل له .

فإيمان المؤمن يشبه حالة السويّ ، الذي لم يفسد فطرته بانكباب ولا انتكاس .

وعمله الصالح في الحياة ، يشبه حالة السويّ الماشي على صراط مستقيم .

وسعادته وهدايته إلى نجاته وفلاحه ، تشبهان حالة الماشي على الصراط المستقيم ، وعاقبة مسعاه .

وكفر الكافر ، يشبه حالة المكبّ على وجهه الذي لا يرى طريقه ، فهو كالأعمى ، إنّه بعملٍ منه قد يحجب عن نفسه أبعاد مسالكه ، لأنه مكبٌّ على وجهه بإرادة منه .

وعمل الكافر في الحياة ، يشبهُ حالة المكبّ على وجهه الذي يمشي في متاهاته على غير هدى .

وتعاسته وضلالته ، تشبهان حالة الذي يمشي في متاهاته ضالاً ، فيتعثر كلّما مشى ، ويتعرّض للعثرات والعقبات والمزالق والحفر ، فهو كادح مكدود ، كلَّما انتهى من ورطة وقع في ورطة أخرى ، ويظلّ يتنقل من متاهة إلى متاهة ، ومن ضلالة إلى أخرى .

٣ ـ الصورة التمثيلية في المثلين منتزعة من الواقع ، مع بعض فقرات قد تكون منتزعة من الخيال ، إذ قد لا نجد سائراً في متاهة مكبّاً على وجهه ، إذا فسّرنا المكبّ على وجهه بالمنتكس الذي يمشي على وجهه بدل أن يمشي على رجليه .

٤ ــ يبدو أنّ الغرض من المثل تقريب صورة الممثّل له ، وتجسيدها ، مع غرض التنفير من الكفر وضلالته ، والترغيب بالايمان وهدايته ، ومع الإقناع بلفت النظر إلى الحقيقة عن طريق المثل •

٥ ــ في المثل دقة التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصورة التمثيلية • وفيه التصوير المتحرّك • وفيه صدق المماثلة بينه وبين الممثّل له • وفيه حذف ما يمكن استكماله دون عناء ، لأنّ اللوازم تستدعيه •

٦ ــ يلاحظ في هذا المثل التنويع ، فقد جاءت المفاجأةُ فيه على طريقة الاستفهام الذي ليس له عند العقلاء إلاّ جواب واحد ، ولم يأت في النص ما يدلّ على أنّه مثل ، بل نُزِّل الممثّل به منزلة الممثّل له تماماً ، فكأنه هو •

ــ ٧ ــ

وقال الله تعالى في سورة (الحجّ) :

[ومن الناس من يعبد الله على حرف فإنْ اصابه خيرٌ اطمأنّ به • وإنْ اصابته فتنة انقلب على وجهه خَسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين (١١) يدعو من دون الله مالايضرهُ ومالاينفعه ذلك هو الضلال البعيد (١٢) يدعو لمَنْ ضَره اقربُ من نفعه لَبِئْسَ المولى ولَبِئْسَ العشير (١٣)] •

(على حرف) : أي على طرف ، وحرف كلّ شيءٍ طرفه •

عبادة الله ذات مستويات بعضها أرقى من بعض ، فبعض الناس يعبد الله من مستوى محور المحبّة • وبعضهم يعبد الله من مستوى محور التعظيم والإجلال والانتماء إليه بالعبودية ، وبعضهم يعبد الله من مستوى محور الحمد والشكر • وبعضهم يعبد الله من مستوى محور الطمع والخوف • ومن عبد الله من مستوى أرقى هو عابد لله من كلّ المستويات التي هي دونه ، ولا عكس •

وأدنى مستويات العبادة هي العبادة من مستوى محور الطمع والخوف • ولهذه الدرجة الدنيا وسط وطرف ، أمّا وسطها فيكون بملاحظة الآخرة وما فيها من

نعيم وعذاب وأما طرفها فيكون بملاحظة ثواب العاجلة وعقابها فقط . ومن يعبد الله على هذا الطرف لا يثبت للفتنة، سواء أكانت الفتنة من قبيل المغريات المادية والمطامع الدنيوية ، أو كانت من قبيل المصائب والآلام . وهذا الصنف من الناس هو الصنف الذي ذكره النص هنا . فهو يعبد الله على طرف المطامع والمخاوف الدنيوية العاجلة فقط .

لذلك فموقعه في الدين موقع قلق غير مطمئن ، إن أصابه باتنمائه للدين خير دنيوي سواء أكان بجلب نفع له أو بدفع ضر عنه اطمأن في موقعه بسبب هذا الخير ، وإن أصابته فتنة فمسّه ضر وهو في موقعه أو جاءه إغراء يفتنه عن دينه ليخرجه منه ، ترك موقعه الكائن على الطرف وذهب مرتداً كافراً .

وحين يكفر بالله ويترك عبادته ، فسيجد نفسه أمام مطالب حياته التي ليس في استطاعته أن يجلبه لنفسه ، مدفوعاً إلى عبادة أوثانٍ يدعوها وهي لا تملك له ضراً ولا نفعاً ، أو إلى عبادة أرباب من الإنس أو الجن يدعوها من دون الله ، وضرّها أقرب من نفعها .

فهو « يدعو من دون الله ما لا يضُرّه وما لاينفعه ذلك هو الضلال البعيد » وهي الأوثان وأشباهها .

أو « يدعو لَمَنْ ضرهُ أقربُ من نفعه لبئس المولى ولبئس العَشِير » وهم الأرباب من الإنس والجن .

وهكذا حصل لمن أنكر وجود الله ، واتّخذ من الناس أرباباً يطيعهم في الشر ، ويخدمهم ، وينفذ أوامرهم ونواهيهم ، إن حصل على بعض منافع مادية بسبب طاعته لهم أصابه بلاء كبير وضر كثير من قبلهم ، لأنهم أرادوا التخلص منه بعد أن استنفدوا أغراضهم من خدماته ، أو من قبل أعدائهم ، لأن من كان من جند الاعداء كان هو من الأعداء ، فيصيبه من الانتقام مثل ما يصيبهم وأكثر .

والأرباب من الإنس أو الجن هم أسوأ الإنس والجن أخلاقاً ، إنّهم لا يعرفون إلا مصالح أنفسهم ، ومتى وقع عبد من عبادهم في البلاء تخلّوا عنه فلم

ينصروه ، وإذا كان في عشرتهم أيام الدعة والرخاء والنصر استأثروا من دونه بالخيرات والمنافع ، وربّما ألقوا إليه فُتات موائدهم فقط ، إنّهم :

« لبئسَ المولى ولبئس العشير » •

هذا ما نفهمه من جملة النصّ ، ولكنّ الذي يعبد الله على حرف ، قد جاء تصويره في صورة بديعة امتزج فيها الممثّلُ له بالممثّلِ به •

فالممثَّل له هو من يعبد الله من مستوى المطامع والمخاوف الدنيوية فقط ، فهو لا يثبت أمام الفتنة ، سواء أكانت من قبيل المغريات أو المصائب والآلام الدنيوية •

والممثَّلُ به من يدخل مع قوم دخول طالب المغنم فقط ، فهو يجلس على طرف منازلهم ، وفي أواخر مواقعهم قلقاً مستوفزاً مستعداً للهرب ، فإن وجد معهم مغنماً استقر في موقعه واطمأن وأصاب من المغنم ، وإن وجد أن مصيبة يمكن أن تنزل بهم فيصيبه منها شيء ، أو لاحت له مغانم عند أعدائهم تركهم وانقلب عليهم •

ولكن الصورة لا بد أن تكون أدق من هذه الصورة ، إن المرتد عن عبادة الله منتكس على وجهه ، وساقط إلى منحدر ، فهو كمن ينقلب على وجهه بعد أن يترك القوم الذين دخل في طرف مواقعهم طمعاً بالمغانم لديهم ، وكذلك جاء تصوير المثل •

ومن البديع في هذا المثل أنه استعير منه للممثل له الفقرة التالية فقط :

« على حرف • فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » •

وما قبل هذه الفقرة وما بعدها كلامٌ يتعلق بالممثَّل له ، وهو من يعبد الله على طرف من الدين ، كما سبق في البيان •

وبهذا نلاحظ أن المثَلَ قد جاء ممتزجاً بالممثَّل له ، وبمثابة جزء من أجزائه ، وهذا من روائع التنويع في ضرب الأمثال •

ومن دقة التصوير في هذا المثل ما نلمحه فيه من وضع الداخل في القوم الجالس على حرف منازلهم • فالصورة توحي بأنّ منازلهم على مرتفع من الأرض ، وقد

جلس هذا الداخل فيهم على حرف المرتفع ، فهو على شفا هاوية . والصورة توحي بأنّ وجهه ليس نحو القوم تماماً ، بل يعطيهم طرفه ، ويلتفت إليهم التفاتاً ليغنم من مغانمهم ، لأنه عند الفتنة ينقلب إلى الهاوية على وجهه ، ولو كان كلّ صدره ووجهه إلى القوم لكان التصوير الدقيق يستدعي أنه عند المفاجأة ينقلب على رأسه من جهة ظهره .

ولمّا وقعت الفقرة من المثل موقع الممثّل له تماماً بنى النصّ عليها الكلام كما لو كانت عين الممثّل له ، فقال تعالى :

« خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين » .

أما خسران الدنيا فهو خسران سعادته فيها ، وخسران حياته إذا حكمت عليه الدولة الاسلامية بالردة . وأما خسران الآخرة فيظهر فيما يحيق به من عذاب أليم في جهنم مأوى الظالمين . وذلك هو الخسران المبين .

ففي المثل الإبداع ، ودقة التصوير ، والتصوير الحي المتحرك ، وصدق المماثلة بينه وبين الممثّل له ، والايجاز بحذف ما يمكن أن يستدعيه ذهن الألمعي ، والبناء على المثل والحكم عليه كأنه عين الممثّل له ، والإبداع هنا يتمثل بالمزج الرائع بين المثل والممثّل له حتى ليكاد الأمر يخفى ، ولا يكشفه إلاّ التأمل الدقيق .

— ٨ —

وقال الله تعالى في سورة (المدّثر) :

[فَمَا لَهُم عن التَّذْكِرة معرضين (٤٩) كأنَّهم حُمُرٌ مستنفِرة (٥٠) فَرَّتْ من قَسْوَرَة (٥١)] .

(التَّذْكِرَة) : التَّذْكِرَة لغة : ما يُسْتَذْكَرُ به الأمر . ولما كان القرآن مُذَكِّراً بالحقائق وواعظاً بها وصفه الله بأنّه تَذْكِرة ، وأطلق عليه اسم (التَّذْكِرَة) .

(حمر) : جمع حِمار .

(مُسْتَنْفِرة) : أي نافرة أصابها الذعر .

(قَسْوَرَة) : القَسْوَرُ والقسورة من أسماء الأسد ، والقسورة جمع القسور سمّي بذلك لأنّه يفترس صيده قَسْراً . والقَسْوَرُ : الصيّاد الرّامي ، وجمعه قَسْوَرَة ، فالقسورة على هذا الرماة الصيادون .

إنّ المعرضين عن القرآن النافرين من سطوته المؤثرة فيهم ، بما فيه من بلاغة رفيعة ودلالات منيعة ، وحقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وأنوار ساطعة ، وهداية قاسرة لمن استسلم إليها ، قد جاء تمثيلهم في هذا النص بالحمر التي هجم عليها أسد أو أسود لتفترسها ، فأصابها الذعر الشديد فنفرت وفرت لا تلوي على شيء .

تحليل المثل :

١ ــ في هذا المثل تمثيل لصورة معنوية مقرونة بظواهر تدرك بالحسّ الظاهر ، بصورة تدرك بالحسّ الظاهر مقرونة بحالة معنوية نفسية .

٢ ــ الصورة التمثيلية في المثل صورة منتزعة من الواقع .

٣ ــ يبدو أن الغرض من هذا التمثيل التنفير من الإعراض عن هداية القرآن، مع تقبيح صورة المعرضين وذمّهم ، إذ جاء تمثيلهم بالحُمُر ، وكان من الممكن تمثيلهم بالبقر أو بالظباء ، لكن الحُمُر هي المعروفة عند الناس بالبلادة والغباء ، فالتمثيل بها أكثر تقبيحاً وذماً لحالة النفور من السطوة المعنوية التي يتصف بها القرآن .

ــ ٩ ــ

وقال الله تعالى في سورة (الحاقة) :

[فأمّا ثَمودُ فأهلكوا بالطّاغية (٥) وأمّا عادٌ فأهلكوا بريح صَرْصَرٍ عاتية (٦) سخّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيّام حُسُوماً فترى القوم فيها صَرْعى كأنّهم أعجاز نخلٍ خاوية (٧) فهلْ ترى لهم من باقيةٍ ؟ (٨)] .

(بالطاغية) : الطاغية صفة للـمُـهْلِـكة التي أهلكتهم • وهي من الطغيان الذي هو تجاوز الحد • وقد جاء في سورة (هود) أن إهلاك ثمود قد كان بالصيحة ، فهي إذن الصيحة العظيمة الطاغية التي كانت السبب في إهلاكهم ، وقد أثبتت التجارب العلمية أنّ من الأصوات ما يقتل ، وما جاء في سورة (هود) هو قول الله تعالى :

[واخذ الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في ديارهم جاثمين (٦٧) كأنْ لم يغنَوْا فيها الا إنّ ثمود كفروا ربّهم • ألا بُعداً لثمود (٦٨)] •

وجاء في شأنهم أيضاً في سورة (القمر) :

[إنّا ارسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر (٣١)] •

الهشيم : هو النبت اليابس المتكسر • والمحتظر : هو صاحب الحظيرة •

(بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية) : أي بريح باردة ، ذات صوت ، شديدة السرعة ، ومثل هذه الريح قاتلة مدمّرة • وهي معروفة في أحداث الكون • والريح متى اشتدت وعتت اصطدمت بالأشياء فكان لها صوت مزعج مخيف ، وهذا الصوت يُسمّى صرصرة • ويقال أيضاً للريح شديدة البرد : ريحٌ صَرْصَرْ • ومعنى (عاتية) متجاوزة للحدّ ، كالطاغية • ولا تكون الريح كذلك إلاّ إذا كانت عنيفة شديدة السرعة ، لا تحتملها الأحياء ولا الأشياء •

(حُسُوماً) : أي متتابعة متوالية فلم تفتر الريح الصرصر العاتية عنهم خلال هذه الأيام والليالي المتتابعة • وإنّما استمرّت عليهم كلّ هذه الأيام والليالي المتتابعة لتحسم ما دهتهم فلا تبقي منهم أحداً • وأصل معنى الحسْم في اللّغة القطع والاستئصال ،واكتسب معنى التتابع لأن الدواء الحاسم والكيّ الحاسم إنّما يكونان بعد تكرار العلاج وتتابعه •

(صرعى) : أي هلكى قد ماتوا • وصرعى جمع صريع •

(كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية) : أعجازُ النخل : أصول النخل •

خاوية : أي أجوافها فارغة بالية لا شيء فيها •

وقال تعالى في سورة (القمر) :

[كذّبت عادٌ فكيف كان عذابي ونُذُر (١٨) إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحسٍ مستمرّ (١٩) تنزع الناس كأنهم أعجاز نخلٍ منقعِرٍ (٢٠) فكيف كان عذابي ونُذُر (٢١)] .

(أعجاز نخْلٍ منقعر) أي أصول نخلٍ منقلع من أرضه .

نلاحظ أن الله تبارك وتعالى قد ضرب مثلاً لصورة الهلكى من ثمود بصورة (هشيم المحتظر) .

أي بصورة أكوام النبت اليابس المتكسّر بعضه فوق بعض في حظيرة صاحب أنعام .

وترك للخيال أن يستكمل صورة هذا الهشيم الذي تدوسه الدوابّ بأرجلها وتلقي ما تلقي عليه من فضلاتها .

إنّ الصيحة الواحدة قد أهلكتهم في مكان تجمعهم ، ولم تسمح لهم بأن يتفرّقوا ، فكانوا كهشيم في حظيرة .

وضرب الله مثلاً لصورة الهلكى من عاد بصورة أعجاز نخل منقعِرٍ من أرضه ، ثم إنّ هذه الأعجاز قد بليت حتى غدت أجوافها خالية .

إنّ هؤلاء قد أهلكوا بريح صرصر عاتية ، صارت تقلعهم من منازلهم وأماكنهم قلعاً عنيفاً وترميهم صرعى .

فصورتهم وهم صرعى متفرّقون كصورة أعجاز النخل المنقعر . وصورتهم بعد أن بليت أجوافهم كصورة أعجاز نخلٍ خاوية .

تحليل المثلين :

في هذين المثلين تبدو دقّة التصوير ، مع إبراز العناصر المهمّة من الصورة التمثيلية . وفيهما صدق المماثلة بين المثل والممثّل له .

والمثلان من قبيل تمثيل مُدْرَكٍ بالحسّ الظاهر بمدركٍ بالحسّ الظاهر . إلاّ أنّ صورة الممثّلِ له أصبحت غائبة من أمور الزمان الماضي ، وصورة الممثّل

به صورة حاضرة لمن أراد أن ينظر إليها ، ففي كل زمان محتظر له هشيم في حظيرته • وفي كل زمان أعجاز نخل منقعر ، وأعجاز نخل خاوية •

والصورة التمثيلية في المثلين منتزعة من الواقع •

وفي سورة (المؤمنون) قال الله تعالى ، في شأن ثمود ـ وهو الأرجح فيما أرى ـ أو في شأن عاد ـ كما ذكر كثير من المفسرين ـ :

[فاخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاءً فبعداً للقوم الظالمين (٤١)] •

فقد أبان النصّ هنا أن مثلهم بعد إهلاكهم كان كمثل الغثاء ، والغثاء : هو ما يعلو السيل من زبد وهشيم وقمامات ، فهو كقوله : « فكانوا كهشيم المحتظر » إذ الصورتان متقاربتان •

— ١٠ —

وقال الله تعالى في سورة (الفيل) :

[بسم الله الرحمن الرحيم • الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل (١) الم يجعل كيدهم في تضليل (٢) وارسل عليهم طيراً ابابيل (٣) ترميهم بحجارة من سجّيل (٤) فجعلهم كعصفٍ ماكولٍ (٥)] •

(أصحاب الفيل) هم أبرهة الحبشي وجيشه الذين جاؤوا لهدم الكعبة •

(كيدهم) : الكيد : هو تدبير أمرٍ مضرٍّ بالغير • وأكثره يكون في الخفاء • ويكون بالحقّ وبالباطل ، فاذا كان بالحق فهو خير وإذا كان بالباطل فهو شرّ • فالكيد لإيقاع المجرمين في الفخّ وإنزال العقوبة بهم هو كيد في الخير ، والكيد لإبطال حقّ وإحقاق باطل ، أو لقتل البرءاء وأكل أموال الناس بالباطل ، هو شرّ •

قال الله تعالى : « إنّهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً » •

(في تضليل) : أي في تضييع وإبطال • وكذلك ضاعت جهود أبرهة ، وتبدد كيده ، وعاقبه الله ومن معه عقاباً شديداً ، فأهلكهم •

(طيراً أبابيل) : طيراً : أي نوعاً من الطيور • أبابيل : أي جماعات متفرقة ، تتتابع عليهم لتعمّهم بما ترمي عليهم من قواتل • قيل : هو جمع واحده (إبّالة) • وقيل : واحده (إبّوْل) كعِجّوْل وعجاجيل • وقيل : هو جمع لا واحد له •

(ترميهم بحجارة من سجّيل) : سجّيل : جاء في تفسير هذه الكلمة أقوال أقربها : أنّ السجّيل نوع من الطين يتحجّر بالنار •

ويقال لغةً : سجله بالشيء إذا رماه به من فوق •

(فجعلهم كعصف مأكول) • العصف : هو ورق الزرع • والعصف المأكول : هو الزرع الذي أكل حبّه وتُرك ورقه ، أو ترك منه مالا تأكله الدوابّ عادة ، فهي تدوسه بأقدامها • أو هو الزرع الذي أكلته الدواب وخرج روثاً •

في هذه السورة ضربَ الله مثلاً لصورة أصحاب الفيل بعد هلاكهم بصورة العصف المأكول •

لقد رمتهم الطير الأبابيل بالحجارة التي كانت تحملها لإهلاكهم بأرجلها ومناقيرها ، فما تصيب واحداً منهم إلاّ أهلكته وقتلته •

وقد جاء في الخبر أنّ الحجر من هذه الحجارة الصغيرة التي لا يتجاوز كبيرها مقدار الحمصة ، كان يصيب أحدهم على رأسه فيخترقه حتى يخرج من أسفله • وعن سعيد بن جبير أنّ هذه الحجارة كانت تحمل داء الجدري ، فما تصيب أحداً منهم إلاّ نفط جلده وثار به الجدري حتى يهلكه •

إنّ هؤلاء الذين أهلكهم الله بهذا النوع من الإهلاك قد ترامت جثثهم في الرمال والوديان، فكانت صورة كلّ جثّة من جثثهم المصابة بالوباء الفتّاك كالعصف المأكول ، أي كروث البهائم التي تأكل العصف • وهذا المعنى أرجح عندي لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ الداء الذي أهلكهم هو داء الجدري •

فالتصوير مع الاحتشام في اللفظ تصوير دقيق •

وقال الله تعالى في سورة (البقرة) :

[الذين ياكلون الرّبا لا يقومون إلاّ كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المسّ ذلك بانهم قالوا : إنما البيع مثل الربا واحلّ الله البيع وحرّم الربا . فمن جاءه موعظة من ربّه فانتهى فله ما سلف وامره إلى الله . ومن عاد فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون (٢٧٥) يمحقُ الله الربا ويُربي الصدقات والله لا يحبّ كلّ كفّارٍ أثيم (٢٧٦)].

(الذي يتخبّطه الشيطان من المس) أصل الخبط الضرب الشديد . والخبطُ ضرب البعير الشيء بخف يده . والخبطُ الوطء الشديد على الأرض . وقيل : الخبطُ كل سيرٍ على غير هدى . ويقولون : خبطه الشيطان وتخبطه إذا مسه بأذى وأفسده . والخباطُ داءٌ كالجنون وليس بالجنون .

ويتخبطهُ الشيطان من المس : أي يتوطؤه فيصرعه . والمس : الجنون .

(عن لسان العرب)

فريق من الناس رفضوا حكم الله في تحريم الربا ، واعترضوا عليه بقولهم : « إنما البيع مثل الربا » مع أنّ الحقيقة تثبت أنّ البيع ليس مثل الربا ، فالربا ظلم واستغلال بغير حق، ووسيلة لمنع التعاطف والتعاون الاجتماعي بالقرض الحسن. كيف يكون البيع مثل الربا « وأحلّ الله البيع وحرم الربا » ؟!.

إنّ هؤلاء الذين رفضوا حكم الله في تحريم الربا ، فكفروا بهذا الرفض ، سيعاقبون عند الله عز وجل على أكلهم الربا عقاباً فوق عقاب الكفر الذي يجعلهم من أصحاب النار هم فيها خالدون .

وهذا العقاب الخاص الذي يناسب حالهم وهم يأكلون الربا إذ يسلب الإثراء بغير حقٍ عاطفتهم الانسانية ، ويجعل أفكارهم ونفوسهم مضطربة دائمة التطلع لمضاعفة رؤوس أموالهم من جهد الآخرين وشقائهم واستغلال ضروراتهم ، قد ضرب الله له مثلاً بصورة المجنون ذي الحركات المضطربة في جنون ثائر ، يمشي ويتعثر ، ويصطدم بالأشياء ، فيخبطه جدار من ذات اليمين ، ثمّ جدار من ذات

الشمال ، ثم شجرة ، أو صخرة ، أو حيوان ، أو يسقط في حفرة ، أو يتعثر فيتقلب على درج ، أو ينزلق إلى هاوية ، فتأتيه الخبطات من كلّ جانب ، وهو لا يرى الشخص المسؤول عن الضربات التي تتهاوى عليه من كلّ جهة ، فكأنّما يتخبّطهُ شيطان خبيث عديم الرحمة ، خفي لا تراه أعين الناس .

وكان العرب يتصوّرون أن الذي به مسٌّ (أي جنون) إذا ثار جنونه واضطربت حركاته وأخذ يتخبط في الأشياء ، فإنّما يتخبّطه الشيطان ، ويظنون أنّ جنّياً شيطاناً قد تسلّط عليه هذا التسلّط الخبيث .

هذه الصورة التي رسمت لنا هذا اللّون من العذاب ، قد ضرب الله بها مثلاً لعذاب الذين يأكلون الرّبا فلا يقلعون عنه ، و لايتوبون إلى بارئهم ، ويرون مع ذلك أنهم لا يفعلون شيئاً منكراً ويعترضون على حكم الله ويرفضونه .

والصورة في هذا المثل صورة منتزعة من الواقع وخيال الناس معاً ، فهي مزيج منهما .

- ١٢ -

وقال الله تعالى في سورة (ق) :

[ونزّلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنّاتٍ وحبَّ الحصيد (٩) والنخل باسقات لها طلع نضيد (١٠) رزقاً للعباد وأحيينا به بلدةً ميتاً كذلك الخروج (١١)] .

ثمّ أنزل تعالى قوله في سورة (الأعراف) :

[وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلدٍ ميتٍ فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات . كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكّرون (٥٧)] .

ثم أنزل تعالى قوله في سورة (فاطر) :

[والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميّت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور (٩)] .

ثم أنزل تعالى قوله في سورة (الزخرف) :

[والذي نزّل من السماء ماءً بقدر فانشرنا به بلدةً ميتاً كذلك تخرجون (١١)] .

ثم أنزل تعالى قوله في سورة (الروم) :

[يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحيّ ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون (١٩) ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم إذا انتم بشر تنتشرون (٢٠)] .

وهذه النصوص مكية .

ثم أنزل الله تعالى في أواسط العهد المدني قوله في سورة (الحجّ) :

[يا ايّها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثمّ من نطفة ثم من علقة ثمّ من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة لنبين لكم ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثمّ لتبلغوا اشدّكم . ومنكم من يتوفّى ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت وانبتت من كلّ زوج بهيج (٥) ذلك بأنّ الله هو الحقّ وانه يحيي الموتى وانه على كلّ شيءٍ قدير (٦) وانّ الساعة آتية لا ريب فيها . وانّ الله يبعث من في القبور (٧)] .

(وحبّ الحصيد) : أي وحبّ الزرع المحصود ، وهو يشمل كلّ حبّ ٍ ينتفع به ، لأيّ زرع تمّ حصاده بعد أن بلغ درجة نضجه .

(والنخل باسقات) : أي عاليات طوالاً .

(لها طلع نضيد) : أي لها ثمرٌ منضود ، والمنضود هو المجموع المتراصف المتراكب بعضه إلى بعض باتّساق جميل ، ونظام بديع .

(سحاباً ثقالاً) : السّحاب : جمع مفرده سحابة . وثقالاً : أي مثقلات بالماء الذي تحمله .

(لبلد ميّت) : أي لأرض لا نبات فيها ، فهي كالميتة لانعدام حياة النبات منها .

(فتثير سحاباً فسقناه) : أي تحرك السحبَ من داخل تجمّعاتها وتهيّجها وهي محمّلة بالماء ، وتسوقها في السماء إلى بلد محتاج للمطر لينبت فيه الزرع .

وأعيد الضمير على السحاب بالمفرد (فسقناه) مع أنّ السحاب جمع سحابة ، ملاحظة للماء الذي تحمله ، والذي هو المقصود من السوق ، فكأنه قيل : فتثير سحاباً ثقالاً بالماء فسقناه ، أي فسقنا الماء ، والله أعلم .

(فأنشرنا به بلدة ميتا) : أي فأحيينا به بلدة ميتاً .

(من علقة) : من دمٍ متجمد .

(من مضغة) : من قطعة لحم صغيرة . وقد سمّيت بذلك لأنها بقدر ما يمضغ .

(مخلقة وغير مخلّقة) : هما طَوْران من مراحل الجنين : طور تكون فيه المضغة مخلّقة : أي ظاهرة التقسيمات للأعضاء . وغير مخلقة : أي غير ظاهرة تقسيمات الأعضاء .

(وترى الأرض هامدة) : أي وترى الأرض ميتة لاحياة فيها ولا نبات .

(اهتزّت وربت) : أي تحرّك النبات فيها ونمت زروعها وظهرت فيها الحياة .

(من كلّ زوجٍ بهيج) : أي من كلّ صنف من النبات حسن ذي نضارة .

في هذه النصوص ضرب الله عزّ وجلّ لمنكري البعث الواقعين أسرى مدركات حواسّهم الظاهرة مثلاً إقناعيّاً ، لتقريب فكرة الحياة بعد الموت من أجل الحساب والجزاء وإقامة مقتضيات حكمته وعدله في عباده .

وهذا المثل هو دورة الحياة النباتية ، التي تنتهي بالحصاد فتعود به الأرض ميتة لاحياة فيها ، ولا خضرة ولا نضرة ، ثمّ تبدأ الدورة من جديد ، فيسوق الله السحاب المثقلة بالماء ، فتنزل الأمطار على الأرض الميتة ، فتتحرّك بقضاء الله وقدره عوامل الحياة الكامنة في البذور المتناثرة المدفونة في الأرض ، فتمتصّ البذور ماءها وغذاءها من الطين ، ثم تنبت من جديد ، فتتشقّق الأرض ، وتخرج الزروع المختلفة، وتنبت الجنّات على أمثال أسلافها مما تركت من بذورها .

هذه الدورة الحياتية التي تتكرّر باستمرار في النبات ، تكفي مثلاً مقنعاً يقرب لأذهان الذين يتعجّبون مما لايشاهدون لـه نظائر في الواقع فكرةَ إمكان عودة الحياة للّذين يموتون من الأحياء ، وتفنى أجسادهم ، وتبلى عظامهم • إنّ الأمر لا يحتاج أكثر من توجّه إرادة الخالق وقدرته •

فاذا كانت البذور المتناثرة ، ونوياتها الصغرى جدّاً ، مستعدّةً بقضاء الله وقدره لأن تنبت منها شجرة عظيمة جديدة ، تماثل الشجرة التي كانت أنتجتها من قبل ، ثمّ يبست وماتت ، فما المانع من أن تكون نويات صغرى لا تدركها الأبصار في أجسام الناس مستعدّة بقضاء الله وقدره لأن تنشأ منها حياة جديدة ، متى جاءت دورة هذه الحياة الجديدة ، وبعث الله الأسباب الكفيلة بقضائه وقدره لإعادة النشأة من جديد ، ولرجعة الأرواح التي فارقت من قبل أجسادها ، إلى أجساد هي نظير أجسادها الأولى ، ناشئة من نوياتها الصغرى المنبثة في الأرض ؟

إنّ البديهة العقلية تقول : إنّه لا يوجد مانع عقلي من عودة الحياة هذه •

على أن أهل الفكر المتجرّد من المؤثرات الحسيّة ، الذين ليسوا أسرى مدركات حواسّهم الظاهرة ، والذين تكفيهم الأدلة البرهانية العقلية ، لا يحتاجون إلى ضرب أمثالٍ تقريبية كهذا المثل ، بل يكفيهم البرهان العقلي الذي تضمّنه قول الله تعالى : « كما بدأنا أوّل خلق نعيده » • فإذْ قد ثبت لهم ببرهان العقل أنّ الله تعالى هو الذي خلق الخلق الأوّل ، فإنهم بالبداهة يقولون : إنّه عزّ وجلّ قادر على أن يعيد الخلق بعد موت الأحياء وفناء أجسادهم • فالبدء والإعادة أمام قدرته العظيمة سواء •

— ١٣ —

وضرب الله أمثلة تقريبية لما يجري من أحداث في الكون عند قيام الساعة ، وتغيّر نظام الكون القائم ، ويوم القيامة وبعث الناس إلى الحياة الأخرى •

فضرب مثلاً لصورة الناس يوم القيامة للحساب والجزاء بالفراش المبثوث ، وبالجراد المنتشر ، فقال تعالى في سورة (القارعة) :

[يوم يكون الناس كالفراش المبثوث (٤)] •

وقال تعالى في سورة (القمر) :

[خُشَّعاً أبصارُهم يخرجون من الأجداث كأنَّهم جرادٌ منتشر (٧) مُهطعين إلى الدّاع يقول الكافرون : هذا يومٌ عَسِرٌ (٨)] (١) •

فالناس عند خروجهم من الأرض تكون صورهم تشبه صورة الجراد المنتشر ، في كثرتهم وتجمعهم وتتابعهم وتدافعهم وتصادم بعضهم ببعض •

وحين يدركون الموقف للحساب والجزاء ، تطيش أحلامهم ، فينبثون ، ويقذفون بأنفسهم هائمين على مواطن يتوهمون فيها نجاتهم ، فتكون صورتهم في هذه الحالة مثل صورة الفراش المبثوث الطائش المتفرق في كل جهة •

وضرب الله سبحانه مثلاً لهم وهم يخرجون من قبورهم سراعاً متجهين إلى الداعي الذي يدعوهم إلى الموقف ، بصورة عبّاد الأوثان الذين يسرعون متدافعين إلى أوثانهم ، فقال تعالى في سورة (المعارج) :

[يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نُصُبٍ يوفضون (٤٣)] •

(الأجداث) : القبور •

(نُصُب) : أي أنصاب • (يُوفِضون) : أي يسرعون •

وضرب الله مثلاً للجبال يومئذ إذ تفقد صخورها قوامَها المتماسك ، وتصبح هشّة منتفخة ، بصورة العِهْن المنفوش ـ والعِهْنُ : هو الصوف المصبوغ ألواناً مختلفة ، والمنفوش : هو المندوف الذي تُفَرَّقُ أجزاؤه المتلبّدة عن بعضها ـ •

فهذه الصورة تبين أنّ الجبال منفوشة كالصوف ، ولكنها مع ذلك تحافظ على ألوانها التي كانت عليها سوداً وحمراً وبيضاً وغير ذلك ، ولهذا جاء تمثيلها بالعهن ، وهو اسم للصوف المصبوغ بألوان مختلفة ، لا بمطلق الصوف ، فقال تعالى في سورة (القارعة) :

[وتكون الجبال كالعهن المنفوش (٥)] •

---

(١) مهطعين إلى الداع : اي ناظرين إليه قد رفعوا رؤوسم نحوه .

وقال تعالى في سورة (المعارج) :

[وتكون الجبال كالعِهن (٨)] .

وضرب الله مثلاً للسماء يومئذٍ بصورة المهل ، وهو النحاس المذاب . وبصورة الوردة الحمراء إذا تخيّلنا وردة أوراقها من مادّة ذائبة رجراجة تشبه الدّهن .

قال الله تعالى في سورة (المعارج) :

[يوم تكون السماء كالمهل (٨)] .

(المهل) النحاس المذاب . ويطلق أيضاً على دردي الزيت . وقد رجحت هنا المعنى الأول .

وقال تعالى في سورة (الرحمن) :

[فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدّهان(٣٧) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٣٨)].

(وردةً) : أي مثل الوردة الحمراء .

(كالدّهان) : أي وهذه الوردة الممثل بها تشبه الدّهان ، والدهان : جمعٌ مفرده الدّهن ، وهو يجمع أيضاً على أدْهان .

ولعل لوصف الوردة بأنها تشبه الدّهان دلالةً مقصودة تتحقق بالجمع ولا تتحقق بالمفرد ، أي تشبه أنواع الدهن ، الذي يوجد منه ما هو سائل رقيق ، وما هو كثيف أخف سيولة ، وما هو قريب من درجة التماسك بنفسه . وهكذا تظهر السماء للناظرين يومئذ .

وهذه الصورة للسماء يومئذٍ ناتجة عمّا يحدث فيها من حركة تشبه حركة الدوّامة في البحر ، فهي تمور موراً ، قال الله تعالى في سورة (الطور) :

[يوم تمور السماء موراً (٩)] .

فإذا ضممنا إلى هذه الحركة اللّون الأحمر النحاسيّ الذي دلّ عليه قوله تعالى في سورة (المعارج) :

[يوم تكون السماء كالمهل (٨)] .

كان الناظر لها من بُعْدٍ يراها كوردة حمراء كبرى مصنوعة من أنواع من الدّهن ، تتحرك أوراقها الذائبة ، ويموج بعضها في بعض ، وهذه الصورة هي التي رسمها قوله تعالى :

[فكانت وردة كالدّهان] •

إنّها لدقة في التصوير بالغة مع إيجاز في اللفظ متناهٍ •

— ١٤ —

وضرب الله أمثلة قرّب بها للناس في الدنيا صورة جمال الحور العين في دار النعيم •

ففي وصف ما للسّابقين المقربين من نعيم في جنات النعيم قال الله تعالى في سورة (الواقعة) :

[وحورٌ عين (٢٢) كأمثال اللؤلؤ المكنون (٢٣) جزاءً بما كانوا يعملون (٢٤)] •

(حورٌ) : جمع حوراء • وهن زوجات المؤمنين في الجنة •

(عِين) : جمعُ عَيْناء ، وهي ذات العين الواسعة الجميلة •

(اللؤلؤ المكنون) : هو اللّؤلؤ المخبّأُ المحفوظ المصون لصاحبه •

وفي وصف نعيم عباده المخلَصين في جنّات النعيم قال الله تعالى في سورة (الصافات) :

[وعندهم قاصرات الطرفِ عِينٌ (٤٨) كأنّهنّ بَيْضٌ مكنون (٤٩)] •

(قاصرات الطرف) : خَفِرات لا ينظرن إلى غير أزواجهن من عفّتهن •

(كأنّهنّ بَيْض مكنون) : أي بياض بشرتهن يشبه البيض المحفوظ المصون•

وفي وصف نعيم من خاف مقام ربّه ، قال الله تعالى في سورة (الرحمن) :

[فيهنّ قاصراتُ الطرف لم يطمثهنّ إنسٌ قبلهم ولا جانّ (٥٦) فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان (٥٧) كأنهنّ الياقوت والمرجان (٥٨)] •

(لم يطمثهن) : أي لم يمسسهُنّ •

(كأنّهن الياقوت والمرجان) . الياقوت : من الحجارة الكريمة الشفّافة ، وفيه ذو اللون الأحمر والأبيض . المرجان : صغار اللؤلؤ ، وهي أشدّ بياضاً من كبـاره .

أي فمواطن الحمرة الجميلة فيهن كَلَوْنِ الياقوت ، ومواطـن البياض الجميل فيهن كَلَوْن صِغار اللؤلؤ .

ففي هذه النصوص ضرب الله أمثلة لجوانب من حُسْنِ الحـور العـين في الجنّـة .

فَلَوْنُ بَشراتهن يشبه لون اللؤلؤ المحفوظ المصون لصاحبه ، ويشبه لون البَيْض المحفوظ المصون من الأوساخ . ومواطن جمال اللّون الأحمر من أجسادهن كوجناتهن وشفاههن يشبه لونها لون الياقوت الأحمر .

ووصفهن الله بأنهن عفيفات قاصرات الطرف لا ينظرن إلى غير أزواجهـن . وبأنّهن واسعات العيون جميلاتها . وبأنّهن أبكار لم يمسسهنّ قبل من هن له من المؤمنين إنس ولا جانّ .

— ١٥ —

وضرب الله مثلاً للكافر بالأعمى ، وللمؤمن بالبصير ، وللكفـر والجهـل بالظّلمات ، وللايمان والعلم بالنور .

وضرب مثلاً للذين لم يهتدوا بهدي الله بالموتى ، وبالعُمي والصّم والبكم .

وضرب مثلاً للمهتدين بهدي الله بالأحياء ، وللاهتداء بهذا الهدي بالحياة .

قال الله تعالى في سورة (الرعد) :

[قـل : من ربّ السموات والأرض ؟ قل : الله . قـل : افاتخذتم من دونه اولياء لا يملكون لانفسهم نفعاً ولا ضرّاً ! قل هل يستوي الأعمى والبصير ! ام هـل تستوي الظلمات والنور ؟ ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟! قل : الله خالق كلّ شيء وهو الواحد القهار (١٦)].

(قل : هل يستوي الأعمى والبصير ؟) : أي هل يستوي الكافر الموغل في الجهالة فهو كالأعمى ، والمؤمن العارف بربّه فهو كالبصير ؟

فصوّر الله الكفر والجهالة النفسية بصورة العمى الحسّي ، على سبيل التمثيل .

وصوّر الإيمان والمعرفة النفسية بصورة البصر الحسيّ ،على سبيل التمثيل .

(أم هل تستوي الظلمات والنور ؟) : أي هل تستوي الجهالات والعلم .

فصوّر الله أنواع الجهل بالظلمات ، ومنها جهالات الكفر . وذلك على سبيل التمثيـــل .

وصور العلم والمعرفة بالنور ، وذلك على سبيل التمثيل أيضاً . والمراد هنا المعرفة بمسائل الايمان وقضايا الدين .

وقال الله تعالى أيضاً في سورة (الرعد) :

[افمن يعلم انما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو اعمى ؟! إنما يتذكر اولو الألباب (١٩)] .

(كمن هو أعمى) : أي كمن لا يعلم أنّما أنزل إليك من ربّك الحقّ ، فهو في واقعه النفسيّ والفكري يشبه الأعمى في واقعه الحسيّ الظّاهر .

وقال الله تعالى في سورة (فاطر) :

[وما يستوي الأعمى والبصير (١٩) ولا الظلمات ولا النور (٢٠) ولا الظلّ ولا الحرور (٢١) وما يستوي الأحياء ولا الأموات . إنّ الله يُسمع من يشاء ومـــا انت بمسمع من في القبور (٢٢) إن انت إلاّ نذير (٢٣)] .

(وما يستوي الأعمى والبصير) : أي وما يستوي الكافر والمؤمن . فالكافر مثل الأعمى ، والمؤمن مثل البصير . وقد وضع الممثل به موضع الممثل له تأكيــداً للمماثــلة .

(ولا الظمات ولا النور) : أي ولا تستوي أنواع الكفر والايمان ، فالكفر مثل الظلمات ، والمعرفة الايمانية مثل النور .

وقد وضع الممثّل به موضع الممثل له تأكيداً للمماثلة .

(ولا الظل ولا الحرور) : أي ولا تستوي راحة الايمان ، ومتاعب الكفر • فراحة الايمان كراحة المقيم في الظلّ ، وتعب الكفر كتعب المقيم في شدّة الحرّ ، وقد وضع الممثّل به موضع الممثّل له تأكيداً للمماثلة •

(وما يستوي الأحيـاء ولا الأموات) : أي وما يستوي المؤمنون الذين هم كالأحياء ، ولا الكفار الذين هم كالأموات •

فالايمان كالحياة للأنفس ، والكفر كالموت لها •

ووصف الله المنافقين بأنهم صمٌّ بكم عمي ، فقال تعالى في سورة (البقرة) :

[صمٌ بكمٌ عمْيٌ فهم لا يرجعون (١٨)] •

وهذا على سبيل التمثيل •

وكذلك وصف الكافرين فقال تعالى في سورة (البقرة) :

[ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لايسمع إلاّ دعاءً ونداءً صمٌ بكمٌ عمْيٌ فهم لا يعقلون (١٧١)] •

وقال الله تعالى في سورة (فصّلت) :

[وأما ثمود فهديناهم فاستحبّوا العَمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهونِ بما كانوا يكسبون (١٧)] •

(فاستحبوا العَمى على الهدى) : أي فاستحبّوا الكفر الذي يشبه العمى على الهـدى •

- ١٦ -

وقال الله تعالى في سورة (الأنعام) :

[أَوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارجٍ منها ؟ كذلك زُيّن للكافرين ما كانوا يعملون (١٢٢)] •

(أَوَ من كان ميتـاً فأحييناه) : أي كافراً فهديناه إلى الايمان فآمن فصار بالايمان حيّاً •

فجعل الله الكفر بمثابة الموت ، لأنّ مثل الكفر للقلوب والأرواح والسعادة النفسية كالموت للأجساد وأنواع الإحساسات الجسديّة . ومثل الايمان للقلوب والأرواح والسعادة النفسية كالحياة للاجساد وأنواع الإحساسات الجسدية باللّذات .

(وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس) : أي وأوضحنا له طريق حياته السعيدة بما أنزلنا من تعاليم وشرائع ووصايا وأحكام .

فضرب الله تعالى النّور مثلاً لتعاليم دينه الذي أنزله لعباده فاهتدى به المؤمنون ، ومشوا به في حياتهم على بصيرة من أمرهم . ووضع الممثّل به موضع الممثّل له ، فكأنه هو ، تأكيداً للمماثلة ، واستغناء بلفظ المشبّه به عن المشبه .

وذلك لأنّ النور في الحسيّات الظّاهرة يكشف طريق الماشي على الأرض ، فهو مثل التعاليم والشرائع والوصايا والأحكام الربانية التي تهدي المؤمنين لفعل الخير وترك الشرّ وتنجي من المزالق والضلالات وأنواع المهالك .

(كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) : أي كمن وصفه أنه بقي في كفره ، وأنواع جَهْلِه ، أو رفضه اتباع ما ينجيه ويسعده من فعل الخير وترك الشّر ، وهو ما تهدي إليه التعاليم والشرائع والوصايا والأحكام الربانية .

فضرب الله تعالى الظّلمات مثلاً لأنواع جهل الكافر بهذه المنجيات المسعدات ، أو رفضه اتباعها والسير بهداها .

ووضع الممثل به موضع الممثل له ، فكأنه هو ، تأكيداً للمماثلة .

وذلك لأنّ الظلمات في الحسيّات تجعل الماشي فيها يتعرّض للمخاطر والمهالك ، فهي كالجهل بدين الله لعباده ، أو رفض اتباعه والعمل به ، كلاهما يوقعان الانسان في المخاطر والمهالك وسوء المصير .

ويلاحظ في هذا النصّ المشتمل على تمثيل الايمان بالحياة ، والكفر بالموت ، وتعاليم دين الله لعباده بالنور ، واتباعها بالمشي بين الناس بالنور ، والجهل بهذه التعاليم بالظلمات ، وعدم اتباع هذه التعاليم بالمشي في الظلمات والمتاهات أن وفرة

عناصر التشابه بين الممثل به والممثل له قد حسَّنت تنزيل الممثل به منزلة الممثل له فكأنه هو ، إيجازاً في اللّفظ ، واختصاراً في التعبير • وفي ذلك ما فيه من تقدير لذكاء المخاطبين وقدرتهم على فهم المراد ، وحلّ للأمثال وإرجاعها إلى أصولها •

ولو أردنا أن نبسط الكلام وندلّ على كلّ فكرة بعبارة مساوية لها دون اعتماد الايجاز بالحذف ، والايجاز بتنزيل الأمثال منزلة ما ضربت له الأمثال ، لكان علينا أن نقول في هذه الآية ما يلي :

أو من كان كافراً بالله واليوم الآخر غير مهتدٍ بهدي دين الله وشرائعه لعباده ، فكان مثله في داخل نفسه كمثل الميت الذي لا حياة في جسده من جهة ، وكمثل الضالّ الذي يسير في الظلمات فيتعرض لأنواع المخاطر والمهلكات من جهة أخرى ، فهديناه إلى الايمان فاهتدى به وآمن ، وأنزلنا عليه الشرائع والوصايا فاتبعها ومشى بهديها على بصيرة ، فأسعدناه بذلك وأنجيناه من المهالك ، فكان في داخل نفسه كمثل الجسد الذي نفخنا فيه الروح فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس •

هل يستوي هذا الذي ذكرنا وصفه هو ومن بقي في كفره ، فهو في واقع حاله النفسي كالميّت من جهة • وهو في أعماله في حياته ضالٌ تائه يتعرض للمخاطر والمهالك من جهة ثانية ، فمثله كمثل من يمشي في الظلمات ليس بخارج منها • وهو مع ذلك راضٍ بواقعه ، ويرى فيه متعة نفسه ومرضيات شهواته : « كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » •

هل يستوي هذان الفريقان ؟!

إنهما لا يستويان بداهة •

— ١٧ —

وقال الله تعالى لرسوله في سورة (الروم) :

[فإنّك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدّعاء إذا ولوْا مدبرين (٥٢) وما انت بهادِ العميِ عنْ ضلالتهم إنْ تسمع إلاّ من يؤمن بآياتنا فهم مسلِمون (٥٣)] •

نلاحظ في هذا النص أن الأوصاف التالية : (الموتى ـ الصُّمّ ـ العُمْي) قد أريد بها الكافرون الذين رفضوا الايمان وأصرّوا على الرفض بعد وضوح أدلة الإيمان لهم • فأمسوا بكفرهم القائم على رفض الحقّ محرومين من الحياة الروحية والقلبية والنفسية المطمئنة السعيدة ، فهم كالموتى بالنسبة إلى هذا الجانب من ذواتهم •

ومن رفض الحق بإصرار وعناد ، انصرف سمعه عن سماع الدعاء لهذا الحق والنداء لاتباعه ، وألقيت على سمعه الغشاوة نتيجة لما كان منه من رفضٍ إرادي بإصرار وعناد ، فكان بالنسبة إلى نداءات دعوة الحق المرفوض من قبله كالأصم • وانصرف بصره عن رؤية دلائل الحق ومعالم طرق الهداية التي يشتمل عليها ، وألقيت على بصره الغشاوة ، فكان بالنسبة إلى هذه المرئيات كالأعمى •

إذن فلا سبيل ـ وهو حر مختار في هذه الحيـاة ـ إلى إسماعه إسماعاً يبلغ مكان التأثير فيه ، فهو كالميّت الأصم • ولا سبيل إلى لفت نظره إلى مواطن الهداية التي يراها المبصرون ، لأنه كالأعمى •

إنّما يسمع السماع المؤثر ، ويبصر الإبصار المؤثر ، مَنْ خطا بإرادته من أوّل الطريق خطوة الإيمان بالله وبآياته ، فانتقل بهذا الإيمان انتقالاً تلقائيّاً إلى الاسلام لله ، والاستسلام لأوامره ونواهيه • فهو عندئذٍ يسمع دعاء الهداية ، إذْ لا حجاب ولا غشاوة • وهو عندئذ يرى ويبصر معالم طريق الهداية ، متى لفت الهادي نظره إليها ، إذ لا حجاب ولا غشاوة •

« إن تسمع إلاّ من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » •

فنفهم من هذا أنّ الله تعالى قد ضرب مثلاً للكافر المصرّ على كفـره بعـد وضوح أدلة الإيمان له ، بالميّت الأصم الأعمى • ولوفرة عناصر التماثل بين الممثل به والممثَّل له أنزل الممثَّل به منزلة الممثَّل له فكأنه هو • تأكيداً للمماثلة ، واستغناء بالألفاظ الدالة على الممثَّل به عن الألفاظ التي تدلّ على الممثَّل له •

وأصل التمثيل هو من قبيل تمثيل أمرٍ معنوي بأمرٍ مُدْرَكٍ بالحسّ الظاهر • وهو من التمثيل البسيط • والصورة التمثيلية فيه منتزعة من الواقع •

ويلاحظ فيه من الخصائص دقة التصوير ، وصدق المماثلة بين المثل والممثّل له . والتنويع في عرض المثل ، إذ نزّل هنا الممثّل به منزلة الممثل له . والبناء على المثل والحكم عليه كأنه عين الممثل له .

ومن الدقة في التصوير ما نلاحظه في قوله تعالى : « ولا تسمعُ الصمَّ الدعاء إذا ولّوْا مدبرين » وذلك لأن الأصم إذا لم يولّ مدبراً فقد يفهم بعض الشيء من حركات الفم وإشارات الوجه ، لكنه إذا ولّى مدبراً لم يفهم شيئاً ، وكذلك حال الكافرين المعرضين بإصرار وعناد عن كل أدلة الهداية إلى الله .

- ١٨ -

وقال الله تعالى في سورة (البقرة) :

[الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢٥٧)] .

وقال الله تعالى في سورة (المائدة) :

[يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين (١٥) يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم (١٦)] .

وقال الله تعالى في سورة (الأنعام) :

[والذين كذّبوا بآياتنا صمٌّ وبكم في الظلمات . من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراطٍ مستقيم (٣٩)] .

وقال الله تعالى في سورة (إبراهيم) :

[آلر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربّهم إلى صراط العزيز الحميد (١)] .

وقال فيها أيضاً :

[ولقد ارسلنا موسى بآياتنا ان اخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيّام الله إنّ في ذلك لآيات لكلّ صبّار شكور (٥)] .

وقال الله تعالى في سورة (الأحزاب) :

[يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً (٤١) وسبّحوه بكرةً واصيلاً (٤٢) هو الذي يصلّي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً (٤٣)] .

أي اذكروا الله وسبحوه ليخرجكم بالذكر والتسبيح من الظلمات إلى النور ، واعلموا أن الله يذكركم هو وملائكته ، فهو يصلي عليكم أي يرحمكم ، وهذا من أعلى الذكر ، وملائكته تصلي عليكم ــ أي تستغفر لكم ــ وهذا من أعلى الذكر أيضاً ، فاشكروا الله على ذلك .

وقال الله تعالى في سورة (الحديد) :

[هو الذي ينزلُ على عبده آياتٍ بيناتٍ ليخرجكمْ من الظلمات إلى النور . وإنّ الله بكم لرؤوف رحيم (٩)] .

وقال الله تعالى في سورة (الطلاق) :

[قد أنزل الله إليكم ذكراً (١٠) رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبيناتٍ ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور . ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخلهُ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ابداً قد أحسن الله له رزقاً (١١)] .

في هذه النصوص سمى الله ما أنزل لعباده من بيان لحقائق الدين ، وتعاليم ، ووصايا ــ نوراً ، وسمى كل ما يخالف ذلك ظلمات .

وأصل هذه التسمية يرجع إلى أنّه عزّ وجلّ ضرب النور الحسّي مثلاً لبياناته وتعاليمه ووصاياه لعباده . وضرب الظلمات مثلاً لكل ما يخالف ذلك من أفكار باطلة ، ومفاهيم وأعمال فاسدة ضارة بالفرد أو بالمجتمع أو بهما معاً .

ونظراً إلى وفرة عناصر المماثلة بين المثل وما ضُرب له المثل ، أنزل الله الممثَّلَ به منزلةَ الممثَّلِ له ، ووضعه في مكانه ، وأطلق عليه لفظه ، فكأنه هو ، فلا فرق بينهما .

فإذا أطلقت كلمة النور في القرآن بمعنى حقائق الدين وشرائعه وأحكامه ووصاياه أسرع ذهن المخاطب إلى فهم المراد منها ، لتكرّر هذا الإطلاق فيه .

وإذا أطلقت كلمة الظّلمات فيه بمعنى الجهل بحقائق الدين وشرائعه وأحكامه ووصاياه ، وبمعنى اتباع غير هداها ، أسرع ذهن المخاطب إلى فهم المراد منها ، لتكرّر هذا الإطلاق فيه .

وجاءت الأحكام السابقة واللاحقة ملائمة للممثل له ، مع استخدام بعض الألفاظ الملائمة للفظ الممثّل به .

وأصل التمثيل هنا هو من قبيل تمثيل أمرٍ معنوي بأمر مُدْرَكٍ بالحسّ الظاهر ، وهو من التمثيل البسيط ، والصورة التمثيلية فيه منتزعة من الواقع .

ويلاحظ هنا أيضاً دقّة التصوير ، وصدق المماثلة بين المثل والممثّل به . والتنويع في عرض المثل هنا يظهر بتنزيل الممثَّلِ به منزلة الممثل له . والبناء على المثل والحكم عليه كأنه عين الممثل له .

— ١٩ —

وقال الله تعالى في سورة (البقرة) :

[لا إكراه في الدّين قد تبيّن الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم (٢٥٦)] .

وقال الله تعالى في سورة (لقمان) :

[ومن يُسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وإلى الله عاقبة الأمور (٢٢)] .

(الرشْد) والرَّشَد والرَّشادُ : نقيض الغَيّ والضّلال ، وهو السّداد في الأمور وإصابة وجه الحق والصواب والهداية . وإرشادُ الضال ، هو هدايته إلى الطريق وتعريفه بها .

(الغي) : نقيض الرّشد ، وهو الضلال والخيبة ، والفساد ، وعصيان من تجب طاعته ، وتنكب طريق الحقّ والنجاة .

(الطّاغوت) : من الطغيان وهو تجاوز الحدّ . وهو اسم يقع على كلّ ما يُعبَد ويطاع من دون الله ، من شيطان ، أو قائد من الإنس أو الجن مضل ، أو غير ذلك . ولفظ (الطاغوت) يطلق على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

(استَمْسَكَ) : أي اعتصم وأمسك بكل قبضته . قال الجوهري : أمسكتُ بالشيء وتمسّكتُ به واستمسكتُ به وأمسكتُ كلّه بمعنى اعتصمتُ . وكذلك مسّكتُ به تمسيكاً .

(بالعُروة) : عُروة الدَّلْوِ والكُوزِ ونحوه مَقْبِضَه . وعُرى المزادة : آذانُها . وعروة القميص : مدخل زره .

(الوثْقى) : أي شديدة الإحكام قويّةُ الارتباط . والوثْقى مؤنث أوثق .

(لا انفصام لها) : أي لا انقطاع لها ، ولا انكسار فيها . والانفصام هو الانقطاع أو الانكسار . والفَصْمُ هو الكسر من غير بينونة .

ونفي الانفصام الذي هو الكسر من غير أن يبين المكسور عن أصله أبلغ من نفي الانقطاع .

في هذين النصين من القرآن الكريم تمثيل لكلٍّ من الإيمان الذي أمر الله به ، والاسلام إلى الله تعالى ، بالعروة الوثقى .

إنّ النجاة والسعادة لا يتحققّان إلاّ برضى الله عزّ وجلّ ،ورضى الله إنّما يكون بالايمان بأنه لا إله إلاّ هو وبالايمان بما أمر بالايمان به،وبالكفر بالطاغوت. وبالاسلام لله تعالى .

فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد حقق لنفسه شرط النجاة ، ومن يُسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد حقّق لنفسه شرط السعادة .

ومن بديع التمثيل أنّ الله تعالى قد مثّل القرآن بالحبل المدلّى منه لعباده ، وأمرهم بالاعتصام به ، وهو ما جاء في قوله تعالى في سورة (آل عمران) :

[يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقّ تقاته ، ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون (١٠٢) واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ...] .

وقد جاء في بيان الرسول ﷺ : إن القرآن هو حبلُ الله المتين . فتأويل الحبل هنا بالقرآن أوجه وجوه التأويل والله أعلم .

وحبل الله المتين هذا فيه عُروتان ، كلٌ منهما عروة وثقى :

الأولى : عروة الايمان كما أمر الله ، فمن تمسك بها نجا .

الثانية : عروة الاسلام إلى الله تعالى ، فمن تمسك بها نال السعادة العظمى .
فتكاملت الصورة التمثيلية : حبل ممدود من الله عز وجل ، لـه عروتان وثقيان ، عروة الايمان وعروة الاسلام ، فمن تمسّك بعروة الايمان نجا ، ومن تمسّكَ معها بعروة الاسلام نال السعادة العظمى .

ويستطيع الذهن أن يتابع تكميل لوازم هذه الصورة التمثيلية ، فمن تمسك بعروة الايمان من حبل الله جذبه الله إلى النجاة وكان سعيداً ، ومن تمسّك بعروتي حبل الله الايمان والاسلام جذبه الله إلى السعادة الخالدة العظمى .

— ٢٠ —

وقال الله تعالى في سورة (الأعراف) :

[ولقد ذرانا لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بـل هم أضلّ أولئك هـم الغافلون (١٧٩)] .

وقال الله تعالى في سورة (الفرقان) :

[ارأيت من اتخذ إلهه هواه ؟. افانت تكون عليه وكيلا (٤٣) ام تحسبُ انّ اكثرهم يسمعون او يعقلون ؟ إنْ هم إلاّ كالانعام بل هم اضلّ سبيلاً (٤٤)] .

وقال الله تعالى في سورة (محمد) :

[والذين كفروا يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم (١٢)] .

(ذَرَأْنا) أي خَلَقْنا . الذَّرْءُ : الخلق .

(مَثْوى لهم) : أي منزلٌ لهم . وثوى الرجل بالمكان يثوي ثـواءً ، أي طال مقامه فيه .

في هذه النصوص ضربَ الله الأنعـام مثلاً للذين كفروا ، وذلك لأنهـم لم يستعملوا ما وهبهم الله من قلوب وعقول وأبصارٍ وأسماع فيما خلقت من أجله ، وهو استعمالها في معرفة أدلة وجود الله والغاية من الخلق .

إنّهم بتعطيل هذه الأجهزة العظيمة عن استعمالها فيما خلقت من أجله غدوا في الحياة الدنيا بمثابة الأنعام التي ترى ، ولكن لا ترى آيات الله في الكون ولا دلائل وجوده ، وتسمع ولكن لا تسمع براهين وجود الله ، ولا الوصايا التي تأمر بالخير وتنهى عن الشر . فعقولهم محجوبة عن معرفـة الحقائق الكبرى المتصلة بالنجاة والسعادة العظمى . وقلوبهم لا تفقه شيئاً من ذلك .

إنهم في الحياة الدنيا يأكلون ويتمتعون ، وليس لهم وراءها هـدف أسمى يسعون إليه ، فهم إذن يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام .

وفي هذا المثل تبدو دقة التصوير ، وصدق المماثلة بين الممثّلِ به والممثّل له .

والتمثيل هنا قائم على التشبيه الصريح البسيط .

وقرر النصان الأولان أنهـم أضل من الأنعام ، والسبب في ذلك أن الأنعام لم تؤت أدوات الكمال في أصل فطرتها ، بخلاف الذين كفروا ، فإنهم قد أوتوا هذه الأدوات ، ومع ذلك لم يستعملوها فيما خلقت من أجله ، بل عطلوها واستعملوها استعمالاً أودى بهم إلى العذاب الأليم الخالد . فالنار مثوى لهم .

وخاطب الله بني إسرائيل بقوله في سورة (البقرة) :

[ثمّ قستْ قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او اشد قسوةً • وإنّ من الحجارة لمَا يتفجرُ منه الانهار وإنّ منها لمَا يشققُ فيخرج منه الماء • وإنّ منها لمَا يهبط من خشية الله وما الله بغافلٍ عمَّا تعملوُن (٧٤)] •

في هذه الآية ضربَ اللهُ القَسْوةَ المادّية في الحجارة مثلاً للقَسْوَةِ المعنوية في قلوبِ المخاطبين •

أي فاذا قارنّا بين القلوب ووجدنا منها ماهو هيّن" ليّن سهل الاستجابة للحق ولمواعظ الهداية ودعوة الخير ، ومنها ما هو أخف ليناً ، ومنها ما هو قاس ، ومنها ما هو أشد قسوة • ثم إذا نظرنا إلى الأشياء المادية ، ووجدنا منها ما هو هيّن" لين سهل العريكة كعجين الدقيق الرطب ، ومنها ما هو أخف ليناً كالعجين الذي أخذ يجف ، ومنها ما هو قاسٍ كالطين اليابس ، ومنها ما هو أشد قسوةً كالحجارة شديدة الصلابة • إذا أجرينا هذه المقارنة وجدنا أنّ نسبة قساوة قلوب المخاطبين من بني إسرائيل المعنوية تماثل نسبة قساوة الحجارة الصلدة المادّية • بل قلوبهم أشد قسوة ، لأنها لا تنفجر بعطاء الخير مطلقاً ، مع أن من الحجارة في الجبال ما يتفجّر منه الأنهار ، ومن الحجارة ما يشّقّق ولو بصعوبة وكلفة فيخرج منه الماء القليل بعيون صغيرة ، أو يرشح منه الماء رشحاً • ولأنّ قلوبهم متعالية مستكبرة لا تخضع لجلال الله ولا تسجد له ولا تخرّ من خشيته ، مع أنّ من الحجارة في شاهقات الجبال ما يتشَقّق ويهبط إلى سفوحها أو إلى الوديان بمؤثرات الأمطار والسيول وغيرها •

ولمّا كان كلّ شيء في الوجود يسبّح بحمد الله كما قال الله تعالى في سورة (الإسراء) :

[تسبّح له السماواتُ السبعُ والأرض ومنْ فيهن وإنْ منْ شيءٍ إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم • إنّه كان حليماً غفوراً (٤٤)] •

ولما كان كل شيء يسجد لله تعالى كما قال الله تعالى في سورة (النحل) :

[أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيءٍ يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون (٤٨) ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون (٤٩)] .

(يتفيأ ظلاله) : أي يرجع من جانب إلى جانب . (داخرون) : أي صاغرون أذلاء .

وكما قال تعالى بشأن نباتات الأرض وأشجارها في سورة (الرحمن) :

[والنجمُ والشجر يسجُدان (٦)] .

(النجم) : كل ما نجم من الأرض من نبات مما لم يكن على ساق كالعشب والبقل .

ولمّا كانت ظواهر حركات الأشياء المادّيّة أثراً من آثار سلطان الله القهري على كل شيء ، ومقروناً بمعنى تسبيح الله والسجود له ، كان هبوط الحجارة من شواهق الجبال هبوطاً من خشية الله ، فهو مظهر من مظاهر السجود له سبحانه ، والخضوع لسلطان قهره في قضائه وقدره .

– ٢٢ –

وضرب الله البيع والشراء والتجارة والربح والخسارة والقرض والفوائد عليه أمثلة للتعامل معه سبحانه وتعالى .

فمن يفعل الخير الذي أمر الله به أو رغبَ فيه ، فقد قدم عطاءً يسيراً جداً ، يعطيه الله به عطاءً عظيماً جداً .

فصورة هذا التعامل مع الله تماثل صورة البيع والشراء بين الناس ، ولما كان عمل العبد ضمن طاعة الله ومرضاته ، فإن تعامله يثمر له فائدة عظيمة جداً ، فهو يشبه إذن التجارة الرابحة .

ومن يفعل الشرّ الذي نهى الله عنه فقد قدّم من ذاته وعمره ومما يملك في حياته الدنيا عطاءً ينجم عنه ضرر كبير له .

فصورة هذا التعامل تماثل صورة من باع نفسه لمن يجلده ويعذبه • وعمله يماثل عمل ذي تجارة خاسرة ، ولكنّ الخسارة هنا لا تقتصر على خسارة المال بل قد تتعدّاها إلى خسارة الذات ، وخسارة السعادة ، والوقوع في العذاب الأليـم •

ولمّا كان عمل العبد في معصية الله وسخطه فان تعامله يثمر له الخسران المبين ، فهو مثل التجارة الخاسرة •

ومن بذل من ماله في وجوه الخير التي أمر الله أو رغّب بالبذل فيها فانّ الله عزّ وجلّ يضاعف له أجر ما بذله أضعافاً مضاعفة •

فصورة هذا التعامل مع الله تماثل صورة من يقرض من ماله ويأخذ عليـه من الفوائد أضعافاً مضاعفة •

إنّ هذا العمل محرّم بين الناس لأنه ظلم لا يرضى الله به ، والناس يطمعون به جداً ، لأنه يحقق لهم مغانم دون مخاطرات ولا مغامرات ، ودون جهد يبذل •

لكنّ التعامل مع الله كلّه قائم على أنّ العبد يقدّم لله ما يجب عليه من الطاعة له • وأنّ الله يتفضّل على أهل طاعته بالعطاء الجزيل منّةً وكرماً •

فالفائدة في هذا التعامل ببذل المال في الخير مضمونة حتماً بلا مخاطرة ، وبدون جهد يبذل ، غير بذل المال كما يدفع المرابي ماله ليجني منه الفائدة الربوية •

ولما كان الفضل الرباني على العمل الصالح مكافأة على صالح العمل ومقدار قيمته في ميزان الرحمن كان جزاءً وثواباً •

ومن النصوص التي نلاحظ فيها هذه الأمثال : (البيع ــ الشراء ــ التجارة ــ الربح ــ الخسارة ــ القرض الحسن والفوائد عليه) في التعامل مع الله ما يلي :

١ ــ قال الله تعالى بشأن المنافقين في سورة (البقرة) :

[أولئك الذيـن اشتروا الضلالـة بالهدى فمـا ربحت تجارتهم وما كانـوا مهتدين (١٦)] •

إنّ هؤلاء المنافقين قد تركوا الهدى وأخذوا الضلالة بدلاً عنه ، فصورة عملهم تشبه صورة الذين يشترون شيئاً بشيء في سوق التجارة • ولكن عملهم هذا قد خسروا فيه أنفسهم ، إذن « فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » •

٢ ــ وقال الله تعالى بشأن الذين كفروا من بني إسرائيل في سورة (البقرة) :

[اولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون (٨٦)] •

أي إنّهم آثروا الاستمتاع بمعصية الله وبما نهى الله عنه في الحياة ، على النجاة من العذاب في الآخرة وعلى السعادة الخالدة في جنات النعيم ــ فكانوا كمن بذل الآخرة التي هي في ملكهم لو أرادوا وأخذ متاع الحياة الدنيا وزينتها •

فعملهم مثل عمل المشتري •

وبعد آيات قال بشأنهم أيضاً :

[بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً ان ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذابٌ مهين (٩٠)] •

٣ ــ وقال الله تعالى في سورة (البقرة) :

[إنّ الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب ويشترون بـه ثمناً قليلاً اولئك ما يأكلون في بطونهم إلاّ النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ اليم (١٧٤) اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما اصبرهم على النار ؟! (١٧٥)] •

٤ ــ وقال الله تعالى في سورة (آل عمران) :

[إنّ الذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضرّوا الله شيئاً ولهم عذابٌ اليم (١٧٧)] •

أي أخذوا الكفر وتركوا الايمان •

٥ ــ وقال الله تعالى في سورة (التوبة) :

[إنّ الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بانّ لهم الجنّة • يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله • فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم (١١١)] •

فالبذل هنا للأنفس والأموال ، وهو ثمن تحصيل الجنة بضمانٍ مقطوعٍ به من الله .

٦ ــ وقال الله تعالى في سورة (البقرة) :

[منْ ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة . والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون (٢٤٥)] .

فجعل الله البذل في سبيله مثل من يُقرض بفائدة عظيمة ، تبلغ أضعافاً مضاعفة ، لأن الله يثيب عليه أضعافاً مضاعفة .

— ٢٣ —

وقال الله تعالى في سورة (البقرة) :

[احلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ ... (١٨٧)] .

(الرفث) : الجماع ومقدماته . وقال : « الرفث إلى نسائكم » على تضمين الرفث معنى الافضاء ، فكأنه على تقدير : أحل لكم ليلة الصيام الرفث مفضين به إلى نسائكم .

في هذا النص ضرب الله اللباس مثلاً لما يكون بين الرجل وزوجته من مباشرة الجسد للجسد ، وتلاصقهما ، وتداخلهما ، وإحاطة كل منهما لصاحبه ، وطول ملازمته له ، مع ما في كلٍّ منهما لصاحبه من ستر ودفءٍ وحفظ .

فالزوجة مثل اللباس لزوجها ، والزوج مثل اللباس لزوجته ، نظراً إلى أن اللباس مباشر للجسد ، وملاصق له ، ومداخل ، ومحيط ، وساتر ، وحافظ ، وفيه دفء ، وملازم للابسه مدّة طويلة ، وكذلك حال كلٍّ من الزوجين الأليفين لصاحبه .

هذه المعاني التفصيلية قد استغني عن ذكرها بقوله تعالى : « هُنّ لباس لكم وأنتم لباسٌ لهنّ » .

ونظراً إلى وفرة عناصر التشابه بين الممثل به والممثل له حسن تنزيل الممثل به منزلة الممثّل له فكأنه هو ، وفي هذا التنزيل إشعارٌ بهذه الوفرة .

ويلاحظ في هذا التمثيل دقة التصوير ، وصدق المماثلة ، ووفرة عناصر التماثل ، والايجاز في ضرب المثل ، وتنزيل الممثل به منزلة الممثل له •

— ٢٤ —

وقال الله تعالى في سورة (الأعراف) :

[إنّ الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم ابواب السماء ولا يدخلون الجنّة حتّى يلج الجمل في سمّ الخياط وكذلك نجزي المجرمين (٤٠)] •

(لا تُفَتَّح لهم أبواب السماء) في بيان المراد من هذا أقوال :

الأول : لا تفتح أبواب السماء لأقوالهم ولا لأعمالهم ، إذ ليس لهم كلام طيب ولا عمل صالح •

وهذا المعنى ينطبق على ما جاء في قوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » •

وينطبق أيضا على ما جاء في قوله تعالى : « كلا إن كتاب الفجار لفي سجين »[١] وسجين : مشتق من السجن • وهو في مكان سافل • بخلاف كتاب الأبرار ، فهو في عليين في السماء كما قال الله تعالى : « كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين »[٢] •

الثاني : لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم عند موتهم ، إذ أرواحهم تظل حبيسة دون السماء •

وهذا المعنى يؤيده ما جاء في بيان الرسول ﷺ عن أرواح المؤمنين وأرواح الكافرين •

الثالث : لا تفتح أبواب السماء لهم لأنهم من أهل النار ، والنار ليست في السماء ، والذين تفتح أبواب السماء لهم هم أهل الجنة •

الرابع : لا تفتح لهم أبواب السماء ، بمعنى لا تنزل عليهم بركات السماء من الله تعالى •

(١-٢) سورة المطففين •

(ولا يدخلون الجنّة حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط) :

يلج : يدخل • الجمل : الحيوان المعروف •

في سَمِّ الخياط : في ثقب الخياط • وكلّ ثقب لطيف دقيق فهو « سم » بفتح السين وضمها• والخياط : الإبرة• وكل مايخاط به يقال فيه : الخياط والمخيط•

وقد ضرب الله دخول الجمل في سَمّ الخياط مثلاً لعَدم إمكان دخولهم الجنة، أي كما أنّ نظام الخلق قائم على عدم إمكان دخول الجمل بجثته الكبيرة في ثقب الإبرة للتفاوت الكبير بين جسم الجمل وفراغ ثقب الإبرة مع بقاء كلّ منهما على مستوى أبعاده ـ كذلك قوانين عدل الله وحكمته تقضي بأن لايدخل الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عن الخضوع لها ، جنَّتَه التي أعدّها للّذين آمنوا ولم يستكبروا عن طاعة الله والخضوع لجلاله وسلطان أمره التكليفي •

ويلاحظ في هذا المثل صدق المماثلة ، فالممثل به مظهر من مظاهر قوانين الله في الخلق والممثل له مظهر من مظاهر قوانين الله في العدل • ويلاحظ فيه تجسيد الفكرة بصورة تدرك بالحس الظاهر • ويلاحظ التنويع في ضرب المثل ، وذلك إذ جاء بيان عدم إمكان دخولهم الجنة بصيغة توهم في مقدمتها إمكان دخولهم الجنة •

ـ ٢٥ ـ

وقال الله تعالى في سورة (الصف) :

[إنّ الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص (٤)] •

(بنيان مرصوص) : بنيان متلاصق ، محكم ، مجموع بعضه إلى بعض ، ويشدّ بعضه بعضاً •

في هذه الآية ضرب الله البُنْيان المرصوص مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه المقاتلون في سبيله ، في تماسكهم ، وتقوية بعضهم بعضاً ، ومساندة بعضهم لبعض ، واجتماعهم في وحدة جماعية ذات هيكل متكامل •

ويلاحظ في هذا المثل دقة التصوير ، وصدق المماثلة ، وهو من قبيل تمثيل أمر معنوي وحسّي ، بشيءٍ حسّي •

- ٢٦ -

وقال الله تعالى في سورة (الحج) :

[يا ايها الناس اتقوا ربكم إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم (١) يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كلُّ ذات حملٍ حملها . وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد (٢)] .

في هذا النصّ ضرب الله مثلاً لحالة الذهول التي تصيب الناس عند قيام الساعة بحالة ذهول السّكارى المخمورين الذين طار صوابهم ، وذهب وعيهم . ولوفرة عناصر التماثل نزل الممثل به منزلة الممثل له .

- ٢٧ -

وقال الله تعالى في سورة (الأعراف) :

[ولمّا سكت عن موسى الغضب اخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمةٌ للذين هم لربّهم يرهبون (١٥٤)] .

في هذه الآية تمثيلٌ للغضب بمحرّضٍ ملحاحٍ داخل النفس يُحرّضُ بكلامه على الثورة ، وعلى قيام الجسم وأعضائه بأعمال الانتقام ضد الذي حرك الغضب . فهيجان الغضب مَثَلُه كمثل صياح هذا المحرض الملحاح . وسكونُ الغضب مَثَلُه كمثل سكوت هذا المحرض عن الصياح ، وعودته إلى حالة الصمت والهدوء .

كل هذه الصورة التمثيلية توحي بها كلمة (سكت) في الآية ،بدل كلمة (سكن) التي كان من الممكن أن تؤدّي المعنى المراد ، ولكن دون إعطاء هذه الصورة النفسية مثالاً من الصور المدركة بالحسّ الظاهر ، وهذه الصورة مأخوذة من صياح صائح ثائر .

ويلاحظ في المثل دقة التصوير ، والايجاز البديع ، وصدق المماثلة ، ولوفرة عناصر التماثل نُزّل الممثّلُ به مَنْزِلَةَ المُمثّلِ له .

وقال الله تعالى في سورة (يونس) :

[للذين احسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قترٌ ولا ذلة اولئك اصحاب الجنّة هم فيها خالدون (٢٦) والذين كسبوا السيّئات جزاء سيّئة بمثلها وترهقهم ذلة . مالهم من الله من عاصم كانما اغشيتْ وجوههُم قطعاً من الليل مظلماً أولئك اصحاب النار هم فيها خالدون (٢٧)] .

(لا يَرْهَقُ وجوهَهُم) : أي لا يغشى وجوههم . يقال : رَهِقَهُ يَرْهقُهُ رَهَقاً ، أي غشيهُ .

(قَتَر) : القَتَرُ جمعُ القَتَرَةِ وهي الغبرَة التي يعلوها سواد كالدّخان .

(وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّة) : أي وتغشاهم علامات الذلة وأماراتها .

(ما لهم من الله من عاصم) : أي ما لهم من عاصم يعصمهم من عذاب الله .

في هذا النصّ ضربَ اللهُ مثلاً لِمَا يغشى وجوهَ الكافرين الذين كسبوا السيئات من علامات الذلة والكمد والحزن والندم ، بالقتر الذي يغشى بعض وجوه الناس الذين يعملون في أماكن يكثر فيها الغبار والدخان . وضرب له مثلاً أيضاً بقطع من الليل المظلم .

والصورة الأولى صورة منتزعة من الواقع . أمّا الثانية فهي صورة منتزعة من الخيال .

ويلاحظ في المثلين دقة التصوير . ولوفرة عناصر التشابه في المثل الأول نُزل الممثّلُ به منزلة الممثّلِ له فكأنه هو .

ونظيره قوله تعالى في سورة (عبس) :

[ووجوهٌ يومئذٍ عليها غبرَة (٤٠) ترهقها قترةٌ (٤١) أولئك هم الكفرةُ الفجرةُ (٤٢)] .

وقال الله تعالى في سورة (الأنبياء) :

[بل نقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق • ولكم الويل ممّا تصفون (١٨)] •

(نَقْذِفُ) : أي نرمي •

(فَيَدْمَغُه) : أي فيكسر رأسه حتى يصيب دماغه • يقال : دَمَغَهُ يَدْمَغُهُ دَمْغاً ، أي ضرب رأسه فكسره فأصاب دماغه فقتله •

(فإذا هو زاهق) : أي فإذا هو مغلوب مضمحلٌ متلاشٍ باطل لا حياة فيه ولا حركة له •

في هذه الآية تمثيل للصراع المعنوي بين الحقّ والباطل وانتصار الحقّ الرّبّاني على الباطل ، بصورة قذيفة صلدة ــ وهي تُمثّل حُجَج الحق وبراهينه وقوى الربّانيين المناصرين له ــ فتصيبُ رأس هدفها فتكسره وتنفذ إلى دماغه وتُرْدِيه صريعاً قتيلاً متلاشياً ــ وهذا الهدف يُمَثّل الباطل وحجَجَهُ الزائفة وهياكله المزخرفة المبهرجة ، والقوى المادية التي تدعمه وتنصره ــ •

ويلاحظ في هذا المثل الإبداع في التصوير الحسي ، وتجسيد الفكرة التي يراد بيانها بمثال بالغ الروعة • ونظراً إلى التطابق بين صورة المثل وما ضرب له المَثَلُ ، جُعل المَثَلُ جزءاً ممّا ضُرب له ، فكأنه منه ، وامتزج الممثَّلُ به بالممثّل له ألفاظاً وأحكاماً وتنائج ، وبهذا تظهر خاصّةُ التنويع من خصائص الأمثال القرآنية •

ويلاحظ في هذا المثل أيضاً دقةُ التصوير مع الإيجاز المعجز ، والتصوير المتحرك •

وقال الله تعالى في سورة (الكهف) :

[ومن أظلم ممّن ذكر بآيات ربّه فأعرض عنها ونسيَ ما قدّمت يداه إنّا جعلنا على قلوبهم أكنّــةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً (٥٧)] .

(أكِنَّةً) : جمع كِنّ . والكِن : هو البيت وكل ما يقي ويستر وما يــردّ الحر والبرد من الأبنية والمساكن . والأكنّة : الأغطية الساترة الواقية .

(أنْ يفقهوه) : أي أن يفهموه فهماً صحيحاً مستوعباً معانيه .

(وفي آذانهم وَقْراً) : أي وفي آذانهم ثِقَلاً وحجاباً يخف به سمعهم ، وقيل الوقرْ هو الصمم الكامل الذي يذهب معه السمع كله . والمعنى الأول هو الأقرب لاتساقه مع نفي الفقه الذي هو العلم القائم على الفطنة ودقة التأمل .

في هذه الآية ضرب الله مثلاً للصوارف المعنوية التي تصرف قلوب الكافرين الذين لا يعبأون بآيات الله إذا ذكروا بهــا ، فيعرضون عنهــا ، ولا يهتمون بتذكر جرائمهم التي فعلوها وملاحظة عدل الله الذي هو نازل بهم لا محالة ، بالأكنّة التي تحجبُ من فيها عن الشعور بما وراءها ، فتحجبه عن نور الشمس وعن رؤية ما في مدى البصر من أشياء . وبالوَقر الذي يحجب به السمع عن أصوات كثيرة .

إن انصراف إراداتهم عن الاستجابة للحقّ تسبّبَ في حجب قلوبهم عن أن تفقه ما تشتمل عليه آيات الله التي يُذَكّرون بها . وتَسَبَّبَ في حجب آذانهم عن سماع هذه الآيات ، فكأن في آذانهم وقراً مــن نوع خاص يحجب عن سماع آيات الله المنزلات .

وقد قضت المقادير الربانية في سننها التي لا تتخلّف ــ إلا إذا اقتضت حكمة الله بتخلّفها ــ أن من رفض الاستجابة لدلائل الايمان بارادته قامت على قلبه ونفسه

وسمعه وبصره الحجب الصارفة له عن الانتفاع بالمذكّرات مهما كانت أنوار الهداية فيها مشرقة ساطعة . فمهما دعاهم الداعي إلى الهدى فإنهم لن يهتدوا إذاً أبداً .

لكنّهم إذا تغيّرت إراداتهم فاتجهت للاستجابة للحقّ ، زالت الحُجُب المعنوية الصارفة عن قلوبهم وسائر حواسهم الظاهرة والباطنة ، وعلى مقدار توجّه الإرادة الصادقة نحو ابتغاء الحق والخير والهدى تنكشف أمامهم دلائل الهداية ، وتستنير بصائرهم لفهم الحقّ ورؤية سُبُله .

فمَثَل الصوارف المعنوية لقلوب الكافرين عن فقه آيات الله كمَثَل الأكنّة ، ومثل الصوارف المعنوية لآذانهم عن سماع آيات الله المنزلات كمثل الوقر .

ولوفرة عناصر التماثل بين الممثل به والممثل له نزلت الأكنة منزلة الحجب المعنوية للقلوب فكأنها هي ، ونُزّلَ الوَقْرُ منزلة الحجُب المعنوية للسمع فكأنه هي ، وبنيت الأحكام على المثل كأنه عين الممثل له .

ويلاحظ في المثلين دقة التصوير ، وصدق المماثلة ، والإيجاز البديع .

والخلق القدري الذي دلّ عليه قوله تعالى : « إنّا جعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً » نظير قولنا : من ضرب رأسه على الصخرة الصماء بعنف شديد كَسَرَ الله رأسه ، ومن دخل في التنور الملتهب ناراً أحرقه الله فيه ، ومن رمى نفسه في البحر واستسلم للغرق أغرقه الله فيه . ومن شرب سُمّاً ليقتل نفسه قتله الله بسمّه . كلّ هذه أسباب إرادية لها نتائج قدرية ضمن سنن الله الثابتة التي إذا أراد الله أوقفها لحكمة هو يعلمها .

ونظير ما جاء في هذه الآية ما جاء في قول الله تعالى في سورة (الإسراء) :

[وإذا قرات القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً(٤٥) وجعلنا على قلوبهم اكنّة ان يفقهوه وفي آذانهم وقراً . وإذا ذكرت ربّك في القرآن وحده ولّوْا على ادبارهم نفوراً (٤٦)] .

أمّا قول الله تعالى في سورة (لقمان) :

[ومن الناس من يشتري لهوَ الحديث ليُضلّ عن سبيل الله بغيرِ علم ويتّخذها هُزُواً اولئك لهم عذابٌ مُهينٌ (٦) وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأنْ لم يسمعها كأنّ في اذُنيهِ وَقراً فبشّره بعذابٍ اليم (٧)] .

فقد جاء فيه التصريح بما يدل على التمثيل : (كأن في أذنيه وقْراً) : أي فالصوارف المعنوية التي تصرفه عن استماع آيات الله التي تتلى عليه ، تُشبه الوقر الذي تُصاب به آذان المرضى بثقل السمع أو الصمم .

بخلاف النّصّين السابقين فقد نُزّل فيهما الوقر منزلة هذه الصوارف ، ونزلت الأكنّة منزلة الصوارف التي تصرف القلوب عن فهم آيات الله ، فكأنها هي ، نظراً إلى وفرة عناصر التشابه .

أمّا قول الله تعالى في سورة (الكهف) :

[ونُفِخَ في الصور فجمعناهم جمعاً (٩٩) وعَرَضنا جهنّم يومئذٍ للكافرين عرْضاً(١٠٠) الذين كانت اعينهم في غطاءٍ عن ذكري وكانوا لايستطيعون سمعاً(١٠١)].

فقد جاء فيه تمثيل الصوارف المعنوية التي تصرف أعين الكافرين عن رؤية الآيات الكونية التي تذكّر بالله ، بالغطاء الذي يغطي الأعين فيحجبها .

ونُزّل الغطاء في التعبير منزل هذه الصوارف المعنوية نظراً إلى وفرة عناصر التشابه بينها وبين الغطاء .

وقوله تعالى : « وكانوا لا يستطيعون سمعاً » فيه دلالة على أن تصميم إراداتهم على الكفر قد تسبّب عنه حجب أسماعهم حجباً كاملاً عن سماع أي قول يذكرهم بالله ، فهم بذلك لا يستطيعون السمع ، كما لا يستطيع العاشق أن يسمع كلام اللائمين ، لأن نفسه تشمئزّ وتنفر نُفْرةً شديدة من سماع مثل هذا الكلام ؛ كذلك هؤلاء ، فإن كراهيتهم للايمان بعد تصميمهم على الكفر قد جعلت نفوسهم تشمئز وتنفر نفرة شديدة من سماع أيّ كلام يذكرهم بالله واليوم الآخر ، ويدعوهم إلى عدم الافتتان بالحياة الدنيا وزينتها ، ويأمرهم بفعل الخير وعمل الصالحات ، وترك الشرّ وعمل السيئات .

وقال الله تعالى في سورة (الأنبياء) :

[وكم قَصَمْنا من قرية كانت ظالمة وانشأنا بعدها قوماً آخرين (١١) فلمّا احسّوا بأسنا إذا هم منها يركضون (١٢) لا تركضوا . وارجعوا إلى ما اترفتم فيه ومساكِنكم لعلكم تسألون (١٣) قالوا : ياويلنا إنا كنا ظالمين (١٤) فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين (١٥)] .

(قَصَمْنا) : القصمُ كسْرُ الشيء الشديد حتى يبين بعضه عن بعض . ومنه قَصْمُ الظهر بمعنى كسره . ويقال : قَصَمَ الرجل الشيء إذا دقّه فكسره فبان بعضه عن بعض . والفرق بين القصم والفصم ـ بالفاء ـ أن الفصم هو أن ينصدع الشيء دون أن يبين بعضه عن بعض ، بخلاف القصم ففيه زيادة معنى انفصال بعضه عن بعض انفصالاً كاملاً .

(أترفتم فيه) : أي أصبتم فيه تَرفاً . والترف : هو التوسع في التنعّم بملاذّ الحياة الدنيا وشهواتها . والمُتْرَف : هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش . ويقال : أترفته النعمة . أي : أطغته .

(حتى جعلناهم حَصيداً) : أي حتى جعلناهم هلكى كالزرع المحصود بالمنجل. والزرع الحصيد ، هو الزرع المحصود .

(خامدين) : أي ميتين لا حركة لهم ولا صوت ، فلا تسمع لهم حساً . وعن الزجاج في (خامدين) : أي ساكتين قد ماتوا وصاروا بمنزلة الرماد الخامد الهامد .

وأصل الخمود سكون لهب النار ، فقد يكون المراد الإشارة إلى أن نار بغيهم وشرّهم وطغيانهم قد انطفأت بعد إهلاكهم ، وقَصْم حياتهم وكلّ قواهم .

في هذا النصّ يخبرنا الله عزّ وجل أن أقواماً كثيرين سلفوا قد أهلكهم الله بظلمهم .

وأن إهلاكهم قد جاءت قبله إنذارات بأن العذاب واقع بهم ، كرياح عاتيات ، وتغيُّرات مخيفة في سماء بلدانهم وقراهم . وأنّهم لمّا أحسّوا أنّ بأس الله واقع بأرضهم حاولوا أن يهربوا منها « إذا هم منها يركضون » .

لكنّ العذاب محيط بهم من كلّ جانب ، فما يتجهون إلى جهة إلاّ ويجدون العذاب مقبلاً عليهم منها ، فيرجعون إلى قراهم ومساكنهم . كأن كلّ شيء من حولهم يقول لهم : « لا تركضوا . وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم » .

إنهم مسؤولون عن الظلم الذي كان منهم ، ومعاقبون عليه بعذاب القصم والاستئصال .

وحين رأوا أن لانجاة لهم من العذاب النازل بهم مهما حاولوا الفرار ، أخذوا يصرخون على أنفسهم بالويل ، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين ، لكن هذا الاعتراف لا ينفعهم بعد أن أمْسوا تحت ضربة العذاب الذي قضى الله به عليهم ، لقد انتهى زمن التوبة .

لم يبق أمامهم إلاّ أن يردّدوا مقالتهم التي صارت دعاءهم : « يا ويلنا إنا كنا ظالمين » .

وتتابعت عليهم المهلكات القاتلات فوجاً بعد فوج حتى صاروا حصيداً ، أي كالزّرع المحصود الذي تساقط بعضه على بعض . وحتى خمدت نارُ شرّهم وبغيهم وطغيانهم ، وانقطعت أنفاسهم ، وسكنت أجسادهم .

في هذا النصّ نلاحظ أنّ الله تعالى قد ضرب مثلاً لإهلاكه هؤلاء الأقوام الظالمين ، بالحصيد الذي تقصمه المناجل ، فيتساقط بعضه على بعض ، وتأتي عليه نارٌ فتحرقه بسرعة ، ثم تخمد هذه النار ، فيكون الحصيد رماداً .

إنه تمثيل فيه حركةٌ ، وتتابع ، ودقّة في التصوير ، وإبداع ، وإيجاز رائع .

ونظراً إلى وفرة عناصر التماثل بين المثل وما ضرب له ، نزل الممثل به منزلة الممثل له فكأنه هو ، وصار المثل جزءاً من أصل الموضوع الذي يتحدث عنه البيان القرآني .

وقال الله تعالى لرسوله في سورة (الأنفال) :

[كما اخرجك ربك من بيتك بالحقّ وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون (٥) يجادلونك في الحقّ بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون (٦)] .

فريق من المؤمنين خرجوا مع الرسول ﷺ يوم بدرٍ وهم كارهون لهذا الخروج ، لأنّهم لا يريدون قتال قريش والتعرّض لنقمتها .

وقد وعد الله رسوله والمؤمنين إحدى الطائفتين : عير قريش وما في العير من أموالها . والنصر على نفير قريشٍ الذين خرجوا بأسلحتهم ومؤنهم لحماية العير . والله قضى بحكمته الثانية ليحق الحقّ بكلماته ، والمؤمنون كانوا يودون الأولى ، لما فيها من حيازة الغنائم دون قتال كبير .

ولمّا نجت العيرُ ولم يعد بامكان المسلمين اللحوق بها تبين لهم أنّ وعد الله سيتحقّق بالنصر على النفير لا بالظفر بالعير .

ومع أنّ هذا الأمر قد تبين لهم وهم مؤمنون لا يشكّون بوعد الله أخذ فريق منهم يجادلون الرسول في هذا الحقّ ، تأثراً بالظواهر السببيّة ، فالمشركون يزيدون على ثلاثة أضعاف المؤمنين ، ومعهم الأسلحة الكافية والمؤن الكثيرة ، والمؤمنون قلّة أذلّة لم يعدّوا للقتال عدّته . وغفلوا عن حقيقة يؤمنون بها وهي أنّ الله عز وجل إذا قضى أمراً حقّقه بقدرته « إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

ولما تقرر أمر القتال بعد استشارة الرسول (ﷺ) لأصحابه ، وأبدى كبارهم وزعماؤهم استعدادهم لما يريد الرسول منهم ، وجد الفريق الكاره منهم أنفسهم أمام الأمر الواقع ، فأخذوا يستعدّون لدخول معركة القتال ولكن بخوف شديد .

وقد ضرب الله مثلاً لحالة هؤلاء النفسية يومئذٍ بالحالة التي يمكن أن يكونوا عليها لو أنهم كانوا يُساقون إلى قتل محقّق ، على يد جلاد حكم عليهم بالموت ، وهم ينظرون مشهد أعمال القتل التي تتساقط فيه الرؤوس •

ففي هذا المثل تمثيل حالة نفسية قائمة مجهولة الكيفية ، بحالة نفسية أخرى لا يجهل المخاطبون كيفيتها ، أو باستطاعتهم تصور كيفيتها ومقدار الذعر فيها ، وما لها من آثارٍ في الوجوه وحركات الجسم •

- ٣٣ -

وقال الله تعالى بشأن المنافقين في سورة (الأحزاب) :

[قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم : هلمّ إلينا • ولا يأتون البأس إلاّ قليلاً (١٨) أشحةً عليكم• فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت • فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حدادٍ • أشحةً على الخير • أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً (١٩)] •

(المعوّقين) : أي المثبّطين • وهم قوم من المنافقين كانوا يثبّطون المؤمنين عن نصرة الرسول (ﷺ) في غزوة الأحزاب ، ويقولون لإخوانهم : تعالوا إلينا واتركوا مواجهة الأحزاب من المشركين المحاصرين وراء الخندق •

(هلمّ إلينا) : أي تعالوا إلينا • وهلم في لغة أهل الحجاز يخاطب بها على الإفراد : المفرد والمثنى والجمع •

(سلقوكم بألسنة حداد) : أي أسمعوكم ما تكرهون من القول مع صياح ورفع صوت ، وآذوكم في الكلام بألسنة سليطةٍ جارحة • يقال : سيوف حداد ، أي ماضية لرقة شفراتها وصلابة حديدها • ويقال : ألسنة حداد ، على تشبيه الألسنة الجارحة للمشاعر بالسيوف الجارحة للأبدان •

وأصل السلقِ شدةُ الصوت •

(أشحةً عليكم) • (أشحةً على الخير) : إنهم منافقون ليسوا بمؤمنين ، فتظاهرهم بالاسلام تظاهر بما لا يعتقدون ، وتظاهرهم بالولاء للمؤمنين تظاهر يخالف ما يضمرون •

والبذل الصادق إنما يكون بدافع داخلي ، والمنافقون لمّا كان ولاؤهم للمؤمنين ولاءً كاذباً ، ولا يعبر عن دافع داخلي فيهم فمن الطبيعيّ أن يكونوا أشحةً على المؤمنين • ولما كان اسلامهم اسلاماً ظاهرياً يخالف ما في قلوبهم من كفر ، فمن الطبيعيّ أن يكونوا أشحةً على الخير ، لأنّ البذل فيما يأمر الاسلام بالبذل فيه هو بذل في الخير •

(فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً) : إحباط العمل إبطاله ، وإيقافه عن تحقيق أثره •

وقد عمل المنافقون في غزوة الأحزاب أعمالاً مختلفة فيها تثبيط للمؤمنين وخذل وتهرّب ، ولكنّ الله عز وجل قد أحبط أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيراً « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » •

وقد وصف الله الحالة النفسية للمنافقين عند الخوف الذي يتعرض المؤمنون له بقوله : « فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت » •

إنّهم بحسب ما يخفون في صدورهم لا مصلحة لهم في قتال المشركين ، والتعرض للمخاوف مع المؤمنين ، وبحسب ما يظهرون للمؤمنين من إسلام وولاء مضطرون أن يتظاهروا بموافقة المسلمين على قتال عدوّهم • فيقعون في حالة التناقض بين ما يريدون أن يتظاهروا به ، وما يريدون أن يحققوه فعلاً بأعمالهم ذات الآثار الحقيقية ، وعند الخوف تشتد حالة التناقض هذه ، لأنّهم غير مستعدين مطلقاً أن يضحّوا بأنفسهم في أمرٍ لا يؤمنون به ، ولكنهم مع ذلك مضطرّون أن لا يكشفوا ما في أنفسهم من كفر ، ويلح عليهم الخوف فينظرون إلى الرسول

(ﷺ) وإلى المؤمنين ولكن أعينهم تدور من أثــر اضطراب نفوسهم مــن شدة الخوف • وضرب الله مثلاً لحالتهم هذه بحالة الذي يغشى عليه من الموت فتدور عيناه • أي إن الذعر يكاد يوصلهم إلى حالة تشبه حالة من أخذ الموت يغشاه •

- ٣٤ -

وقال الله تعالى بشأن المنافقين في سورة (المنافقون) :

[وإذا رايتهم تعجبك اجسامهم • وإن يقولوا تسمع لقولهم • كأنهم خشبٌ مسندة • يحسبون كلّ صيحة عليهم • هم العــدوّ فاحذرهم • قاتلهــم الله أنى يؤفكون (٤)] •

في هذه الآية وصف الله فئة من المنافقين الذين كانوا في عصر الرسول (ﷺ) ومنهم عبد الله بن أبيّ بن سلول بعدّة صفات :

الصفة الأولى : أنهم ذوو أجسامٍ مهيبة تعجب الناظرين ، دلّ على هــذه الصفة فيهم قول الله تعالى لرسوله : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم » •

الصفة الثانية : أنهم ذوو ألسنة فصيحة وكلام يعجب السامعين ، وقد دلّ على هذه الصفة فيهم قول الله تعالى لرسوله : « وإن يقولوا تسمع لقولهم » •

الصفة الثالثة : أنهم يجلسون في مجالس الرسول (ﷺ) وهو يتحــدث أو يخطب أو يتلو آيات الله ، لكنهم لا يفقهون مما يقــول شيئاً ، لأنّ قلوبهــم وأسماعهم منصرفة عن أقواله ، فهم غير مؤمنين به حتى يحفلوا بما يقول ، وحتى يوجهوا له انتباههم •

وقد دلّ على هذه الصفة من صفاتهم ما ضربه الله من مثلٍ لهم ، إذ شبههم بالخشب المسندة على الجدر •

إنّ صورتهم وهم يجلسون في مجالس الرسول (ﷺ) وقد أسندوا ظهورهم إلى الجدر ، وتظاهروا بالوقار ، وأعطوا لأنفسهم أفضل الأماكــن في مجالسه ،

وقلوبهم ونفوسهم وأفكارهم وأسماعهم منصرفة كلّ الانصراف عما يقوله الرسول ويحدث به من أمورٍ تتعلق بالدين وأحكامه ، هذه الصورة تشبه صورة الخشب المسندة على الجدر . إنّ الخشب ذات منظرٍ وهياكل عظيمة رفيعة القامة ، لكنها فاقدة الحياة ، لا تسمع ولا تبصر ولا تعي شيئاً ، وهم ذوو منظرٍ معجبٍ وهياكل عظيمة رفيعة القامة بين الناس ، لكنهم أجساد فقط ، خالية من روح الايمان ، وقلوبهم وحواسهم لا تعي شيئاً مما يوجه لها من بيان ومواعظ وإرشادات .

ويلاحظ في هذا المثل دقة التصوير وحلاوته ، ويظهر من الأغراض فيه التوبيخ والتهكم .

الصفة الرابعة : أنهم جبناء ، يخافون أن تنكشف خياناتهم ، ويظهر نفاقهم ، لذلك فهم كثيرو الحذر من كلّ شيء ، فما يسمعون صيحة إنذار أو تهديد إلاّ ويحسبونها عليهم . وقد دلّ على هذه الصفة فيهم قول الله تعالى : « يحسبون كلّ صيحة عليهم » .

الصفة الخامسة : أنهم شديدو العداوة للمسلمين ، وأن خطرهم على المسلمين أشدّ من خطر الكافرين الصرحاء ، لأنهم مخالطون مداخلون ، لا يعلم عداوتهم كثير من المسلمين . وقد دلّ على هذه الصفة فيهم قول الله تعالى : « هم العدوّ فاحذرهم » أي هم العدوّ بالغ العداوة شديد الخطورة ، فيجب الحذر الشديد منهم .

— ٣٥ —

وقال الله تعالى في سورة (الحجرات) :

[يا ايّها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إنّ بعض الظن إثم ولا تجسّسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً . ايحبّ احدكم أنْ ياكل لحم اخيه ميتاً ؟ فكرهتموه . واتقوا الله إنّ الله توابٌ رحيم (١٢)] .

في هذه الآية نهى الله الذين آمنوا عن طائفة من القبائح الاجتماعية :

الأولى : اتّهام الناس بالسيئات ومنكرات الأفعال والأقوال والنيّات وأفعال القلوب وحركات النفوس ، استناداً إلى الظنون الضعيفة التي لم يأذن الله ببناء أحكام عليها .

وفي النهي عن هذه القبيحة الاجتماعية أمر الله عزّ وجلّ باجتناب مسبباتها ، وهي أنواع الظنون الضعيفة ، فقال الله تعالى : « اجتنبوا كثيراً من الظّن إنّ بعض الظنّ إثم » وذلك لأنّ اتباع الظّن الذي لا يصلح للحكم والإدانة ولا لتحصيل المعارف ــ يجعل الانسان دائم السَّبْح في الظنون ، سريع إصدار الأحكام بمجرد الظنّ . وهذا يوقعه في كثير من الخطأ ، وهذا الخطأ قد يكون أمراً هيناً لا إثم فيه ، كالأخطاء التي ليس فيها ظلم لأحد ، ولا فهم فاسد في الدين ، ولا فهم يفضي إلى ضرر بصاحبه ، ولكن قد يكون أمراً ليس هيناً نظراً إلى ما فيه أو يفضي إليه من الوقوع في الإثم الذي يؤاخذ الله عليه .

وهنا تظهر لنا الدقة البالغة في قول الله تعالى : « إن بعض الظن إثم » بعد قوله : « اجتنبوا كثيراً من الظن » على أنّ الأمر باجتناب كثير من الظن يفيد أن من الظن مالم يأمر الله باجتنابه ، كالظنون التي تبنى عليها شرعاً أحكام قضائية ، وتستنبط بها أحكام شرعية ومفاهيم دينية . فحكم القاضي بشاهدين صحيحي الشهادة حكم بالظن لا باليقين ، لاحتمال خطئهما ونسيانهما ، واحتمال فسقهما مع ظهور عدالتهما . والاستنباطات الظنية الاجتهادية من قبل ذوي أهلية الاجتهاد استنباطات مقبولة شرعاً ، ومن اجتهد فأصاب كان له أجران ، ومن اجتهد فأخطأ كان له أجر واحد .

الثانية : التجسّس على المسلمين ، لاكتشاف عوراتهم التي يتوارون بها ، ويخفونها عن أعين الناس ، إن كانت لهم عورات . وفي النهي عن هذه القبيحة الاجتماعية قال الله تعالى : « ولا تجسّسوا » .

الثالثة : الغيبة ، وهي ذكر المؤمن أخاه بما يكره ، وفي النهي عن هذه القبيحة الاجتماعية قال الله تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضاً » .

وللتنفير الشديد من هذه الخصلة القبيحة ضرب الله مثلاً لمن يغتاب أخاه المؤمن بمن يأكل لحم أخيه ميتاً .

ونظراً إلى وفرة عناصر التشابه بين الممثل به والممثل له نزل الممثل به منزلة الممثل له فكأنه هو ، إذن فحكمه مثل حكمه .

ومن الابداع في عرض المثل الاتيان به على سبيل الاستفهام التقريري جزءاً من الممثَّل له ، وهو من يغتاب أخاه ، ولم يأت فيه لفظ يدلّ على التشبيه أو التمثيل « أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ؟ فكرهتموه » .

ويبدو في هذا التمثيل أنه من قبيل التمثيل المركب : فَعِرْضُ المؤمن مثل لحم جسده . وغَيْبَتُه عن مجلس من يتحدث عنه مثل جسده الذي لا حياة فيه ، إذ ليس لديه قدرة الدفاع عن نفسه في كلتا الصورتين . وذكره بما يكره مثل أكل لحمه وهو ميت .

والغرض من المثل التنفير ، وتقبيح صورة الغيبة في نفوس المؤمنين .

وهذا المثل من قبيل تمثيل أمرٍ حسّيّ كلامي ذي أثر معنوي في أعراض الناس بأمرٍ حسي ذي أثر حسي في أجساد الناس . فهو من قبيل تمثيل أمرٍ حسي ومعنوي بصورة حسية .

وفي المثل هذا من الخصائص : دقة التصوير ، والتصوير الحي المتحرك ، وصدق المماثلة ، والتنويع الإبداعي في عرض المثل .

أمّا قوله تعالى بعد عرض المثل : « فكرهتموه » أي كرهتم أن يأكل أحدكم لحم أخيه ميتاً . فيبدو لي أنه معطوف على محذوف ، ويمكن أن نقدره بنحو قولنا : إنكم عرفتم قبح أن يأكل أحدكم لحم أخيه ميتاً فكرهتموه أي لذلك فأنتم لا تفعلونه بطبعكم ، إذن فلا تفعلوا ما هو مثله وهو أن يغتاب بعضكم بعضاً .

وإشارة إلى أنّ الغيبة إثم يعاقب الله عليه ، قال الله تعالى في آخر الآية : « واتقوا الله » ، وتحريضاً على التوبة من هذه القبيحة الاجتماعية قال الله تعالى : « إن الله تَوّابٌ رحيم » .

* * *

خاتـمَة

هذا ما فتح الله به عليّ في موضوع الأمثال القرآنية ، بعد ان سبرتها ، وتأملت في اصولها ، واقسامها ، واغراضها ، وخصائصها . وقـد تانيت في التدبّر ولـم استعجل ، ونظرتُ في كتب التفسير وفيما قاله المفسرون ولم استقل بالراي . أما علوم البلاغة ، وما كتب الكاتبون حول إعجاز القرآن البياني ، فقد كانت عندي حصيلة علم افدت منها كثيراً في بحثي هذا دون أن اتقيد بمصطلحاتها ، ولا بحدودها التي وقفت عندها . إلاّ انني لم انظر في كتابات من كتب قبلي في الأمثال القرآنية .

وارجو ان اكون قد وفقت في بحثي هذا لخدمة كتاب الله المجيد ، وأضفتُ إلى المكتبة القرآنية الكبيرة بعض ماهو نافع وجديد .

وما أحسنت فيه فهو توفيق من الله ، ونفحة من نفحات جوده ، وما أخطأت فيه فهو من كبوات فكري ، ومن قصوري او تقصيري .

والحمد لله على ما أعطى ، وأسأله ان يغفر زلاتي ، ويعفو عن خطيئاتي ، وينفع بهذا العمل ، ما دام في الناس منتفع بعلم لدينه او دنياه .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

وكان الفراغ منه ظهر يوم الثلاثاء الثاني من شهر ذي الحجة سنة ١٣٩٩ من هجرة نبينا محمد ﷺ .

مكة المكرمة ٢ /١٣٩٩/١١ هجرية

و ١٩٧٩/١٠/٢٣ ميلادية

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الفهرس

الموضوع :	الصفحة

الموضوع : الصفحة

الموضوع :	الصفحة

